

طوق الحمامة في الألفة والألاف

ابن حزم



طوق الحمامة
في الألفة والألاف
ابن حزم



طوق الحمامة في الألفة والألاف

ابن حزم

HQ801 .I24 2014
ابن حزم، علي بن احمد، 1064-994 .
طوق الحمامة في الألفة والألاف/ ابن حزم الأندلسي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط.
1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014 .
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 5 - 333 - 17 - 9948 - 978
1 الحب في الأدب العربي. 2 . الرسائل العربية -- الأندلس. أ . الشيخ، خليل.
ب.العنوان. ج.السلسلة.

إعداد:
خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

المقدمة

حظي كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي (456 هجرية) باهتمام ودراسات بالعربية وبغيرها من اللغات، على نحو لم يحظ به أي من الكتب التي ألفت في الحب في التراث العربي على كثرتها وأهميتها. فقد ظفر الطوق بتحقيقات كثيرة، وكان المستشرق الفرنسي بتروف، هو أول من تولّى نشر الكتاب وتقديمه عام 1914، ونشره في هذه الأثناء محققون عرب، وكان الأستاذ الدكتور إحسان عباس- رحمه الله- قد نشره عام 1980 في سياق نشر هرسائل ابن حزم. وسعى إلى تقديم قراءة دقيقة له. كما حظي "طوق الحمامة" بترجمات إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والروسية مثلما حظي بدراسات في تلك اللغات.

يصدر ابن حزم في كتابه الذي قسّمه إلى ثلاثين بابا عشرة منها في أصول الحب، واثنا عشر في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة، وستة في الآفات الداخلة على الحب، وباب في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف عن منظور فكري يمثّل رؤيته مثلما يعكس سيرته الذاتية وقدرًا كبيرًا من التجربة الأندلسية.

فمن المعروف أن ابن حزم كان من أعمدة الفقه الظاهري، وكان يعرِف ما كتبه الشعراء والأدباء والفقهاء الحنابلة وأهل الظاهر في مسألة الحب. فقد كان ابن حزممطّلعا على ما كتبه ابن داود الظاهري في كتابه "الزهرة"عن الحب، ويعرف ما كتبه إخوان الصفا وابن سينا وغيرهم عن الحب. وكان ابن حزم بالتالي يعي تفسيرات الحب الأكثر شيوعا والتي تجمع بين التنجيمي والفلسفي والطبي. وهو ما أوضحه إحسان عباس في الدراسة الضافية التي قدم بها للكِتاب.

ويلفت النظر أن يكون معظم الذين ألفوا في الحب من الفقهاء الحنابلة أو الظاهرية. ولعل مردّ هذا الاهتمام كما أشار الدارسون، هو أن هؤلاء الفقهاء كانوا على صلة بتغيّرات الواقع الاجتماعي، وكانوا يدرسون تلك التغيرات ويقدّمون وجهات نظرهم بصرف النظر عن مدى حماستهم للظاهرة. كما يتبدّى في الفارق بين كتابي "روضة المحبين" لابن القيم وكتاب "ذم الهوى" لابن الجوزي على سبيل المثال.

سمّى ابن حزم كتابه "طوق الحمامة" وهي تسمية لافتة حقا كما يقول إحسان عباس. لأنها تثير الكثير من التأمل، فالعرب تسمي الحمامة بالمطوّقة، وهي زينة تعود في الأصل إلى دعاء النبي نوح لها في أثناء الطوفان، حين أرسلها لتستكشف الشاطئ القريب لرسوّ السفينة. وقد صارت الحمامة رمزا للجمال والسلام وحظيت في الشعر العربي بالكثير من المناجاة في لحظتي الفرح والحزن، فكانت نقطة وصل يربط بين المشاعر المختلفة. من هنا اختار ابن حزم طوق الحمامة ليكون دالا على هذه المعاني، وإن حرص على أن يجيء الربط بين الحب والجمال بارزا ودالا.

يقدّم ابن حزم في كتابه جزءًا غير يسير من سيرته الذاتية الخاصة بعلاقته بالنساء في المجتمع الأندلسي. وهي علاقة ترسم صورة المرأة في ذلك المجتمع وبخاصة مجتمع قرطبة. والمتأمل للطوق يرى أن ابن حزم جمع فيه بين الفكرة الفلسفية وتحليلها وبين الوصف والخبر والحكاية والشعر. وكان الشعر في الكتاب مقتصرًا على أشعاره التي حاول أن تكون مناسبة لطبيعة الموضوع.

لقد برع ابن حزم ليس في تقديم رؤيته للحب فحسب، بل في الحديث عن الشعر والموسيقى والغناء الذي كان يهتم به بوصفه من الفنون الراقية، وهو يحكي في غير حكاية عن عزف العود والغناء الجميل.

والكتاب في المجمل أنشودة جميلة في الاحتفاء بفكرة الحب وتبيان ماهيته حيث يقول ابن حزم مبرزا جمال تلك اللحظة:

"وما أصناف النبات بعد غِب القَطْر، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السَّجْح، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النّوّار، ولا تألّق القصور البِيض، قد أحدقت بها الرياض الخُضْر، بأحسنَ من وصلِ حبيبٍ قد رضيتْ أخلاقه، وحمدت غرائزه، وتقابلت في الحُسْن أوصافه، وإنه لَمُعجِزٌ ألسنة البلغاء، ومُقَصِّرٌ فيه بيانُ الفصحاء، وعنده تطيش الألبابُ، وتعزُبُ الأفهامُ".

إن المتأمل لما ألّفه ابن حزم من كتب فكرية متنوعة، يعي مدلول أن يهب ابن حزم لفكرة الحب هذا الجهد التأليفي الثري، والذي ما يزال يلقى الكثير من الاهتمام إلى يوم الناس هذا.

الكَلامُ في ماهيّة الحُبّ

الحب - أعزّك الله - أوله هزل، وآخره جدّ، دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكَرٍ في الديانة ولا بمحظور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عزّ وجل.

وقد أحبَّ من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير، ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غيرَ قليل.

وأما كِبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كَلَفِ المظفّر عبد الملك بن أبي عامر بواجدٍ، بنت رجل من الجنَّانين حتى حمله حُبّها أن يتزوَّجَها، وهي التي خَلَفَ عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبد الله بن مَسلمة، ثم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر.

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغْنِيَ بأشعارهم عن ذكرهم؛ وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[1] وشعره ما فيه الكفاية، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة[2]، وقد جاء من فتيا ابن عباس - رضي الله عنه - ما لا يحتاج إلى غيره حين يقول: هذا قتيلُ الهوى لا عَقْلَ ولا قَوَد.

وقد اختلف الناسُ في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصلِ عنصرها الرفيع[3]، لا على ما حكاه محمد بن داود - رحمه الله - عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكَرٌ مقسومة، لكنْ على سبيل مناسبةِ قواها في مقرِّ عالِمَها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها.

وقد علمنا أن سرَّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، والشكل دأبًا يستدعي شكلَهُ، والمِثْلُ إلى مِثْله ساكن، وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثير مشاهَدٌ، والتنافرُ في الأضداد، والموافقة في الأنداد والنزاعُ، فيما تشابه موجودٌ فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالمُها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهرُ الصعَّاد المعتدل، وسِنْخها المهيَّأ لقبول الاتفاق والمَيل والتوق

والانحرافِ والشهوة والنفار - كلِ ذلك معلومٌ بالفطرةِ في أحوال تصرُّف الإنسانِ فيسكَن إليها، والله - عزَّ وجلَّ - يقولِ (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) (الأعراف: 189)، فجعل علّةَ السكون أنها منه. ولو كانَ علةَ الحبِّ حُسْنُ الصورةِ الجسديّةَ لوجب ألا يُسْتَحْسَن الأَنْقَصُ في الصورة، ونحن نجد كثيرًا ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلم فَضْلَ غيره، ولا يجد محيدًا لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس.

وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها، فمن ودَّك لأمر ولَّى مع انقضائه.

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب، فأفضلها: محبةُ المتحابّين في الله - عز وجل -، إما لاجتهادٍ في العمل، وإما لاتفاقٍ في أصل النِّحلة والمذهب، وإما لفضلِ علم يُمْنَحُهُ الإنسان؛ ومحبةُ القرابة، ومحبةُ الألفة في الاشتراك في المطالب، ومحبةُ التصاحب والمعرفة، ومحبةُ البرِّ يضعه المرء عند أخيه، ومحبةُ الطمع في جاه المحبوب، ومحبةُ المتحابَّين لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُهُ، ومحبةُ بلوغِ اللذة وقضاء الوطر، ومحبةُ العشقِ التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس.

فكلٌّ هذه الأجناس منقضيةٌ مع انقضاء عللها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنّوها فاترة ببعدها، حاشا محبةَ العشق الصحيح المتمكّن من النفس، فهي التي لا فناء لها إلا بالموت. وإنك لتجد الإنسان السالي بزعمه، وذا السِّنِّ المتناهيةِ، إذا ذكّرته تذكَّر وارتاح وصبا، واعتاده الطرب، واهتاج له الحنين.

فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان في الاتصال وحظهما واحد. فالجواب عن ذلك أن نقول: هذه لعمري معارَضَةٌ صحيحة، ولكنَّ نفسَ الذي لا يحبُّ من يحبه مُكْتَنَفَةُ الجهاتِ ببعضِ الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية، فلم تُحِسِّ بالجزء الذي كان متصلًا بها قبل حلولها حيث هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة. ونفس المحبِّ متخلَّصةٌ عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبةٌ له، قاصدةٌ إليه، باحثة عنه، مشتهيةٌ لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنيطس والحديد.

فقوة جوهر المغنيطس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها، ولا من تصفيتها، أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه؛ إذ الحركة أبدًا إنما تكون من الأقوى، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس، تطلب ما يشبهها، وتنقطع إليه، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة، وليس بالاختيار والتعمد. وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذبْ؛ إذ لم يبلغ من قوته أيضًا مغالبةَ الممسك له مما هو أقوى منه. ومتى كثرتْ أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظم جرم المغنطيس ووازتْ قُواه جميعَ قوى جِرْم الحديد، عادت إلى طبعها المعهود.

وكالنار في الحجر لا تبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما، وإلا فهي كامنةٌ في حَجَرها لَا تبدو ولا تظهر.

ومن الدليل على هذا أيضًا أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلةَ واتفاق في الصفات الطبيعية، لا بدَّ في هذا وإن قلّ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة، وتأكدت المودة، فانظر هذا تَرَهُ عِيانًا، وقولُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤكده: "الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، ما تعارَف منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف"، وقولٌ مرويٌ عن أحد الصالحين: " أرواح المؤمنين تتعارف". ولذلك ما اغتمَّ بقراطُ حين وُصِفَ له رجلٌ من أهل النقصان يحبه، فقيل له في ذلك فقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه.

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلمًا، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته، وعلم الملك أنه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولَّى إيصالَ كلامه إليه: أيها الملك، قد استبان لك أنه بريءٌ فما لك وله؟ فقال الملك: لعمري ما لي إليه سبيل غير أني أجد لنفسي استثقالًا لا أدري ما هو. فأُدِّيَ ذلك إلى أفلاطون. قال: فاحتجت أن أفتشَ في نفسي وأخلاقي شيئًا أقابلُ به نفسه وأخلاقه مما يشبهها، فنظرت في أخلاقه فإذا هو محبٌ للعدل كارهٌ للظلم، فميزت هذا الطبعَ فيّ، فما هو إلّا أن حركتُ هذه الموافقةَ، وقابلتُ نفسه بهذا الطبع الذي بنفسي، فأمر بإطلاقي وقال لوزيره: قد انحلَّ كلُّ ما أجدُ في نفسي له.

وأما العلة التي توقع الحب أبدًا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفسَ تولَعُ بكلِّ شيء حسن، وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه، فإن ميّزت وراءها شيئًا من أشكالها اتصلت وصحّتِ المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئًا من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة؛ وإن للصور لتوصيلًا عجيبًا بين أجزاء النفوس النائية.

وذُكِرَ عن بعض من يعلمون في القيافة أنه أُتيَ بابنٍ أسود لأبيضين، فنظر إلى قسمات وجهه فرآه لهما غير شكّ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذي اجتمعا عليه، فأُدخِل البيتَ الذي كان فيه مضجعهما، فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورةَ أسودَ في الحائطِ، فقال لأبيه: مِن قِبَلِ هذه الصورة أتيتَ في ابنك.

وكثيرًا ما يصرُّف شعراءُ أهل الكلام هذا المعنى في أشعارهم، فيخاطبون المرئيّ في الظاهر خطاب المعقول الباطن، وهو المستفيض في شعر النظّام إبراهيم بن سيّار[4] وغيره من المتكلمين، وفي ذلك أقول شعرًا منه:

أمِنْ عالم الأمَلاكِ() أنت أم أُنسيُّ

أبنْ لِي فقد أزْرَى بتمييزيَ العِيُّ

أرى هيئةً إنسيةً غيرَ أَنه

إذا أُعْمِلُ التفكيرُ فالجِرمُ عُلويُّ

تبارك مَن سَوّى مذاهبَ خَلْقِه

على أنكَ النورُ الأنيقَ الطبيعيُّ

ولا شك عندي أنك الروحُ ساقَهُ

إلينا مثالٌ في النفوس اتصَاليُّ

عَدِمنا دليلًا في حُدوثك شاهدًا

نَقيسُ عليه غيرَ أنك مرئيُّ

ولولا وقُوعُ العينِ في الكون لم نقُل

سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقيُّ

وهذا بعينه موجود في البغضة، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة، ويستثقل بعضهما بعضًا بلا سبب.

والحب - أعزك الله - داءٌ عَياءٌ وفيه الدواء منه على قدر المعاناة، وسقامٌ مستلذٌّ، وعلّةٌ مشتهاةٌ، لا يودّ سليمُها البرءَ ولا يتمنّى عليلها الإفاقة؛ يُزيّن لِلمرء ما كان يأنف منه، ويسهِّلُ عليه ما كان يصعبُ عنده، حتى يحيلَ الطبائعَ المركبة، والجبلّة المخلوقة.

خبر:

ولقد علمتُ فتًى من بعض معارفي قد وَحِل في الحب وتورَّط في حبائله، وأضرَّ به الوجدُ، وأنصبه الدنف، وما كانت نفسُه تطيب بالدعاء إلى الله - عزَّ وجلّ - في كشف ما به ولا ينطق به لسانه، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب، على عظيم بلائه، وطويل همه، فما الظنّ بسقيم لا يريد فقْد سقمه؟! ولقد جالسته يومًا فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءني، فقلت له في بعض قولي: "فرَّجَ الله عنك"، فلقد رأيت أثرَ الكراهيةِ في وجهه؛ وفي مثله أقول من كلمة طويلة:

وأستلذُّ بلائي فيك يا أملي

ولستُ عنك مدَى الأيام انصرفُ

إن قيلَ لي تتسلّى عن مودّته

فما جوابيَ إلا اللّام والألفَ

علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفَطِنُ، ويهتدي إليها الذكيّ.

فأولها إدمانُ النظر؛ والعينُ باب النفس الشارعُ، وهي المنقِّبة عن سرائرها، والمعبِّرة لضمائرها، والمُعْربةُ عن بواطنها. فترى الناظرَ لا يطرف، يتنقّل بتنقِّل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميلُ حيث مال، كالحرباء مع الشمس، وفي ذلك أقول شعرًا منه:

فَلَيسَ لعَيْني عند غيركَ موقفٌ

كأنك ما يحكون من حَجَر البَهْتِ()

أُصرِّفها حيثُ انصرفْتَ وكيفما

تقلبتَ كالمنعوتِ في النَّحوِ والنَّعتِ

ومنها الإقبالُ بالحديث، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقُه فيه؛ والإنصاتُ لحديثه إذا حدَّث، واستغرابُ كلِّ ما يأتي به ولو أنه عينُ المحالِ وخَرْقُ العادات؛ وتصديقُهُ وإن كَذَبَ؛ وموافقتُه وإن ظَلَم؛ والشهادةُ له وإن جار، واتِّباعهُ كيف سلك وأيّ وجهٍ من وجوهِ القول تناول؛ ومنها الإسراعُ بالسيرِ نحو المكان الذي يكون فيه؛ والتعمُّد للقعود بقربه

والدنو منه؛ واطراح الأشغالِ الموجبة للزوال عنه و الزّهد فيها، والرّغبة عنها، والاستهانة بكلَ خطبٍ جليلٍ داعٍ إلى مفارقته؛ والتباطؤُ في المشي عند القيام عنه؛ وفي ذلك أقول شعرًا:

وإذا قُمتُ عنكَ لم أمشِ إلّا

مَشْيَ عانٍ يُقادُ نحو الفَناء

في مَجيئي إليكَ أحتثُّ كالبد

ر إذا كان قاطعًا للسماء

وقِيامي إن قمتُ كالأنجمِ العا

ليةِ الثابتاتِ في الإبطاء

ومنها بَهْتٌ يقع، وروعةٌ تبدو على المحبِّ عند رؤيةِ من يحبُّ فجأةً وطلوعِهِ بغتةً. ومنها اضطراب يبدو على المحبِّ عند رؤية من يُشبه محبوبَه أو عند سماع اسمه فجأةً.

ومنها أن يجودَ المرءُ ببذل كلِّ ما كان يقدر عليه مما كان يمتنعُ به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعيُّ في حظه، كل ذلك ليُبديَ محاسنه ويُرغِّب في نفسه؛ فكم بخيل جاد، وقَطوب تطلَّق، وجبانٍ تشجَّع، وغليظِ الطبع تظَرَّف، وجاهلٍ تأدَّب، وتَفِلٍ[5] تزيَّنَ، وفقيرٍ تجمَّل، وذي سنٍّ تفتَّى، وناسكٍ تفتَّك، وَمَصُونٍ تهتَّك.

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه، وتوقُّدِ شُعَلِهِ واستطارةِ لهبه. فأما إذا تمَكَّنَ وأخذَ مأخذه، فحينئذ ترى الحديث سِرارًا، والإعراض عن كل من حَضر إلّا عن المحبوب جهارًا. ولي أبيات جمعت فيها كثيرًا من هذه العلامات، منها:

أهوى الحديثَ إذا ما كان يُذْكَرُ لي

فيه ويَعبقُ لي عن عَنبر أرجِ

إن قالَ لم أستمعْ ممَّن يُجالِسُني

إلى سوَى لفظهِ المستظرف الغَنِجِ

ولو يكونُ أمير المؤمنين معي

ما كنتُ من أجله عنه بمُنعرجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُلِّ بَصر: الانبساطُ الكثير الزائد في المكان الضيّق، والتضايقُ في المكان الواسع، والمجاذبةُ على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرةُ الغمز الخفيّ، والميلُ بالاتّكاء، والتعمدُ لمسّ اليدِ عند المحادثة، ولمسِ ما أمكنَ من الأعضاء الظاهرة، وشَربُ فَضْلَةِ ما أبقى المحبوبُ في الإِناء، وتحرّي المكانِ الذي يقابله فيه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة، والأسباب المحركة، والخواطر المهيجة. والأضدادُ أندادٌ، والأشياءُ إذا أفرطتْ في غايات تضادّها، ووقفتْ في انتهاء حدودِ اختلافها، تشابَهَتْ، قدرةٌ من الله - عز وجل - تضلُّ فيها الأوهام. فهذا الثلج إذا أُدْمِنَ حَبْسُهُ في اليد فَعَلَ فِعْلَ النار، ونجد الفَرَحَ إذا أفرط قتل، والغمَّ إذا أفرط قتل، والضحكَ إذا كثر واشتدَّ أسال الدمعَ من العينين.

وهذا في العالم كثير، فنجد المحبَّيْنِ إذا تكافيا في المحبة، وتأكدتْ بينهما تأكدًا شديدًا كثر تهاجُرُهما بغير معنًى، وتضادُّهما في القول تعمَّدا، وخروجُ بعضهما على بعضٍ في كلِّ يسيرٍ من الأمور، وتتبعُ كلٍّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأوّلها على غير معناها، كلُّ هذه تجربة ليبدُو ما يعتقده كلُّ واحدٍ منهما في صاحبه.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادّة المتولدة عن الشحناء وحرج التشاجر سرعةُ الرضى، فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغايةَ من الاختلاف الذي لا تقدِّرُهُ، يصلُح عند الساكن النفس، السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقودِ أبدًا، فلا تلبثُ أن تراهُما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة، وأُهْدِرَتْ المعاتبة، وسَقط الخلافُ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة، هكذا في الوقت الواحد مرارًا. وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجْك شكٌّ، ولا يدخلنَّكَ ريبٌ ألبتةَ، ولا تَتَمارَ في أن بينهما سرًّا من الحب دفينًا، واقْطع فيه قَطْعَ من لا يصرفه عنه صارف. ودونكها تجربةً صحيحةً وخِبرةً صادقة. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودةِ وائتلافٍ صحيح، وقد رأيتُهُ كثيرًا.

ومن علاماته أنك تجد المحبَّ يستدعي سماعَ اسم مَنْ يحب، ويستلذُّ الكلام في أخباره، ويجعلها هِجِّيراهُ، ولا يرتاحُ لشيءٍ ارتياحَهُ لها، ولا ينهنهه عن ذلك تخوُّف أن يفطنَ السامعُ، ويفهَم الحاضر، وحبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصمّ. فلو أمكن المحبّ ألا يكونَ حديثٌ في مكانٍ فيه إلا ذِكْرُ من يحبه لما تعدَّاه.

ومن علاماته حُبُّ الوَحْدَةِ، والأُنْسُ بالانفراد، ونحولُ الجسم دون حَرٍّ يكونُ فيه، ولا وجعٍ مانعٍ من التقلب والحركةِ والمشي؛ دليلٌ لا يكذبُ، ومُخبرٌ لا يخون عن علةٍ في النفس كامنة.

والسهرُ من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه، وحكوا أنهم رُعاةَ الكواكب وواصفو طولِ الليل.

ومن أعراضه الجزَعُ الشديدُ، والحيرةُ المفظعة تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفارِه منه، وآية ذلك الزفيرُ وقلَّةُ الحركةِ والتأوُّه وتنفُّس الصُّعَداء.

ومن علاماته أنك ترى المحبَّ يحبُّ أهلَ محبوبه وقرابتَهُ وخاصَّتَهُ حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته.

والبكاءُ من علامات المحبّ ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع، هامِل الشؤون، تُجيبه عَيْنُهُ، وتحضُره عَبْرَتُهُ إذا شاء، ومنهم جَمودُ العين، عديمُ الدّمع، وأنا منهم.

وكان الأصل في ذلك إدماني أَكْلَ الكُنْدُر [6] لخَفقانِ القلب، وكان عَرض لي في الصِّبا، فإني لأُصابُ بالمصيبة الفادحة فأَجدُ قلبي يتفطَّر ويتقطع، وأحسّ في قلبي غُصَّةً أمرَّ من العلقم تَحول بيني وبين توفية الكلام حقّ مخارجه، وتكاد تشرقني بالنَّفَس أحيانًا، ولا تجيب عيني البتةَ إلّا في الندرةِ بالشيءِ اليسير من الدمع.

ويعرضُ في الحبِّ سوءُ الظنِّ، واتهامُ كلِّ كلمةٍ من أحدهما، وتَوْجيهُهَا إلى غير وَجْهها، وهذا أصلُ العتابِ بين المحبين. وإني لأعلم من كان أحسنَ الناس ظنًّا وأوسعهم نَفسًا، وأكثرَهُمْ صبرًا، وأشدَّهم احتمالًا، وأرحَبهم صدرًا، ثم لا يحتملُ ممن يُحبّ شيئًا، ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبديَ من التَّعديد فنونًا، ومن سوء الظن وجوهًا.

وترى المحبَّ، إذا لم يَثِق بنقاءِ طويَّةِ محبوبه له، كثيرَ التحفّظ ممّا لم يكنْ يتحفظُ منه قبل ذلك، مثقَّفًا لكلامه، مزينًا لحركاته، ومرامي طرفه، ولا سيما إن دُهي بمتجنٍّ وبُلي بمُعربد.

ومن آياته مراعاة المُحبّ لمحبوبه، وحفظُهُ لكلِّ ما يقعُ منه، وبحثُهُ عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقه ولا جليله، وتتبَّعُهُ لحركاته. ولعمري لقد ترى البليد يصيرُ في هذه الحالة ذكيًا، والغافل فطنًا.

أشكال الحب:
مَن أَحَبَّ في النوم

دخلتُ يومًا على أبي السريّ عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد، فوجدته مفكرًا مهتمًا، فسألته عمّا به، فتمنّع ساعة ثم قال: لي أعجوبة ما سُمعت قط. قلت: وما ذاك؟ قال: رأيت في نَومي الليلة جارية فاستيقظتُ وقد ذهب قلبي فيها وَهِمْتُ بها، وإني لفي أصعب حالٍ من حبّها. ولقد بقي أيامًا كثيرة تزيد على الشهر مغمومًا لا يهنَئه شيء وجدًا، إلى أن عذلتُه، وقلت له: من الخطأ العظيم أن تشغلَ نفسك بغير حقيقة، وتعلِّق وهمك بمعدوم لا يوجدُ، هل تعلم مَن هي؟ قال: لا والله، قلت: إنك لَفِيلُ[7] الرأي، مُصاب البصيرة؛ إذ تحب مَن لم تره قط، ولا خُلِقَ ولا هو في الدنيا، ولو عشقتَ صورة من صور الحمّام[8] لكنتَ عندي أعذرَ؛ فما زِلتُ به حتى سلا وما كاد.

مَن أحبَّ بالوصف

من غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة، والهمُّ والوجدُ والسهرُ على غير الإبصار، فإن للحكاياتِ ونعت المحاسن ورصف الأخبار تأثيرًا في النفس ظاهرًا؛ وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار، فيكون سببًا للحب واشتغال البال.

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بُنيان هارٍ على غير أسٍّ، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى مَن لم يرَ لا بدّ له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورةً يتوهمها وعينًا يقيمها نُصب ضميره، لا يتمثلِ في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المعاينة يومًا ما فحينئذ يتأكد الأمرُ أو يبطلُ بالكليّة، وكلا الوجهين قد عَرَضَ وعُرف، وأكثر ما يقع هذا في ربّات الخدور المحجوبات من

أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال، وحبُّ النساء في هذا أثبت من حبّ الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهنّ إلى هذا الشأن، وتمكّنه منهن. وفي ذلك أقول شعرًا منه:

ويا مَن لامني في حُبِّ مَن لم يَرَهُ طَرْفِي

لقد أفرطْتَ في وصفِك لي في الحُبِّ بالضَّعفِ

فقُلْ هلْ تُعْرَفُ الجنةُ يومًا بسوى الوصفِ

مَن أحبَّ من نظرةٍ واحدة

وكثيرًا ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة. وهو ينقسم قسمين، فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا، وهو أن يعشق المرءُ صورةً لا يعلم مَنْ هي، ولا يدري لها اسمًا ولا مستقرًّا، وقد عرض هذا لغير واحد.

خبر:

كان يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرماديّ مجتازًا عند باب العطارين. فنهضتْ امرأة نحو القنطرة، ولم يمكنه اتباعها؛ لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها، فلم يقع لها على مسألة.

قال يوسف بن هارون: فو الله لقد لازمتُ باب العطارين والربضَ من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعتُ لها على خبر ولا أدري أسماءٌ لحسَتها أم أرض بَلَعَتْها، وإِنَّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر؛ وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره. ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سَرَقُسْطة[9] في قصة.

وإني لأطيل العَجَبَ من كل من يدّعي أنّه يحبّ مِن نظرةً واحدةٍ، ولا أكاد أصدِّقه، ولا أجعل حُبَّه إلا ضَربًا من الشهوة، وأما أن يكونٍ في ظنّي متمكنًا من صميم الفؤاد، نافذًا في حِجاب القلب، فما أقدِّر ذلك، وما لصِق بأحشائي حُبٌّ قطّ إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا، وأخذي معه في كلّ جدٍ وهزل، وكذلك أنا في السلوّ والتوقّي، فما نسيتُ ودًّا لي قطّ، وإن حَنيني إلى كلِّ عهدٍ تقدم لي ليُغِصّني بالطعام، ويشرقني بالماء، وقد استراح من لم تكنْ هذه صفتَهُ. وما مللتُ شيئًا قط بعد معرفتي به، ولا أسرعتُ إلى الأنْس بشيءٍ قطّ أولَ لقائي له، وما رغبتُ الاستبدالَ إلى سبب من أسبابي مذ كنت، لا أقول في الألّاف والإخوانَ وحدهم، و لكن في كل ما يَستعملُ الإنسانُ من ملبوسٍ ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيش، ولا فارقني الإطراقُ والانغلاقُ مذ ذقتُ طعمَ فراقِ الأحبة، وإنه لشَجًى يعتادني، وولوعُ همٍّ ما ينفكّ يَطْرقني، ولَقد نَغَّص تذكّري ما مضى كلَّ عيشٍ استأنفه، وإني لَقتيلُ الهمومِ في عداد الأحياء، ودفينُ الأسى بين أهل الدنيا. والله المحمودُ على كلّ حالٍ لا إله إلا هو.

ولا يظن ظانٌّ، ولا يتوهَّمْ متوهِّمٌ أنّ كلَّ هذا مخالفٌ لقولي المسطّر صدر الرسالة:" إن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العُلْوي"، بل هو مؤكِّد له. فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحُجُب، ولحقتها الأعراض، وأحاطت بها الطبائعُ الأرضية الكونية، فسترت كثيرًا من صفاتها، وإن كانت لم تُحِلْهُ، لكن حالتْ دونه، فلا يُرجى الاتصالُ على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصالِ المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت بما يُشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالًا صحيحًا بلا مانع.

وأما ما يقع من أوّل وَهْلةٍ ببعضِ أعراضِ الاستحسانِ الجسديّ، واستطراف البصر الذي لا يجاوزُ الألوانِ، فهذا سرُّ الشهوة ومعناها على الحقيقة، فإذا فَضَلتِ الشهوةُ، وتجاوزت هذا الحدَّ، ووافق الفَضْلَ اتصالٌ نفساني تشتركُ فيه الطبائع مع النفس تسمَّى عشقًا. ومن هذا دخل الغلَط على من يزعُم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة ، وهي على المجاز تسمى محبةً لا على التحقيق، وأما نفسُ المحبِّ فما في الميل به فضلٌ يصرفه في أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثان! وفي ذلك أقول:

كَذبَ المُدّعي هوى اثنين حتمًا

مثلَ ما في الأصولِ أُكْذِبَ ماني

ليس في القلب موضعٌ لحبيبيـ

ـن ولا أحدَثُ الأمور بثاني

وإني لأعرف فتى من أهل الغنى والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حُبه، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه، وقُطوب دائم كان لا يفارقه، ولا سيما مع

النساء، فكان لا يلبث إلا يسيرًا ريثما يصل إليها بالجماع، ويعود ذلك الكَره حُبًّا مُفرطًا وكلفًا زائدًا واستهتارًا مكشوفًا، ويتحوَّل الضجرُ لصحبته ضجرًا لفراقه.

مَن أحبَّ صفةً لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم أعزّك الله إن للحُب حكمًا على النفوس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يخالَفُ، وحدًّا لا يُعصَى، وملكًا لا يُتَعَدَّى، وطاعةً لا تُصرف، ونَفاذًا لا يُرَدُّ، وأنه ينقضُ المِرَرَ، ويَحُلّ المُبْرَم، ويُحلِّل الجامدَ، ويخل الثابت، ويَحُلُّ الشغافَ، ويُحلُّ الممنوع.

ولقد شاهدتُ كثيرًا من الناس لا يُتَّهمون في تمييزهم، ولا يُخافُ عليهم سقوطٌ في معرفتهم، ولا اختلالٌ بحُسنِ اختيارهم، ولا تقصيرٌ في حَدْسهم، قد وَصَفوا أحبابًا لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس، ولا يُرْضَى في الجمال، فصارت هجّيراهم، وعُرضةً لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم، ثم مضى أولئك إمّا بسُلُوٍّ، أو بَيْنٍ، أو هجر، أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسانُ تلك الصفات، ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخليقة، ولا مالوا إلى سواها؛ بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورةً عندهم، وساقطةً لديهم، إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم، حنينًا منهم إلى مَن فقدوه، وأُلفةً لمن صحبوه. وما أقول إن ذلك كان تصنُّعا، لكن طبعًا حقيقيًّا، واختيارًا لا دَخَلَ فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في طَيِّ عَقْدِهِمْ بغيره.

وإني لأعرف من كان في جِيد حبيبه بعضُ الوقص[10]، فما استحسن أَغْيدَ ولا غيداء بعد ذلك؛ وأعرف مَن كان أول علاقته بجاريةٍ مائلةٍ إلى القصر، فما أحبَّ طويلة بعد هذا؛ وأعرف أيضًا من هوي جارية في فمها فَوَهُ[11] لطيف، فلقد كان يتقذَّرُ كلَّ فمٍ صغير، ويذُمّه، ويكرهُهُ الكراهية

الصحيحة. وما أصف عن منقوصي الحُظوظ في العلم والأدب لكن عن أوفرِ الناسِ قسطًا في الإدراك، وأحقهم باسم الفهم والدّراية.

وعني أخبرك أني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراءَ الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداءَ الشعر، ولو أنه على الشمس، أو على صورة الحسن نفسه، وإني لأجِدُ هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تواتيني نفسي على سواه، ولا تحبُّ غيره البتة، وهذا العارض بعينه عَرض لأبي وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه.

أشكال التواصل: التعريض بالقول

أول ما يَستعمل طُلَّاب الوصل وأهلُ المحبةِ في كشف ما يجدونه إلى أحبتِهم التعريضُ بالقول، إما بإنشادِ شعر، أو بإرسالِ مَثَلٍ، أو تعميةِ بيت، أو طَرْحِ لغز، أو تسليطِ كلام.

والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أَحِبتهم، من نِفارٍ أو أُنْسٍ أو فطنةٍ أو بَلادةٍ. وإني لأعرف من ابتدأ كشفَ محبّته إلى من كان يحبُّ بأبياتٍ قلتُها. فهذاً وشبهه يبتدئ به الطالبُ للمودة، فإن رأى أنسًا وتسهيلًا زاد، وإن يعاينْ شيئًا من هذه الأمور في حين إنشاده لشيءٍ مما ذكرنا، أو إيرادِهِ لبعض المعاني التي حدّدنا، فانتظارُهُ الجوابَ، إما بلفظٍ، أو بهيئة الوَجه والحركاتِ، لموَقِفٌ بين الرجاء واليأس هائل، وإن كان حينًا قصيرًا، لكنه إشرافٌ على بلوغِ الأملِ أو انقطاعِهِ.

ومن التعريض بالقول جنسٌ ثانٍ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق، ومعرفة المحبَّةِ من المحبوب، فحينئذ يقعُ التشكّي وعقدُ المواعيد بالتغرير[12]، وإحكام المودّات بالتَعريض، وبكلام يَظْهَرُ لسامعه منه معنًى غيرُ ما يذهبان إليه، فيجيبُ السامعُ عنه بجوابٍ غيرِ ما يتأدّى إلى المقصود بالكلام، على

حسب ما يتأدّى إلى سمعه ويسبقُ إلى وهمه، وقد فهم كل منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما، إلا مَنْ أيِّدَ بحسٍّ نافذٍ، وأعِين بذكاء، وأمِّدَ بتجربة، ولا سيما إن أحسَّ من معانيهما بشيءٍ قلما يغيبُ عن المتوسّم المُجيد، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وَصْلها على بعض ما لا يجمل، فقالت: والله لأشكونَّكَ في الملأِ علانيةً ولأفضحنَّكَ فضيحةً مستورة. فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلسَ بعض أكابر الملوك وأركان الدولة وأجلِّ رجالِ الخلافة، وفيه ممن يُتَوَقَّى أمْرُهُ من النساءِ والخدم عددٌ كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى؛ لأنه كان بسبب من الرئيس، وفي المجلس مغنّيات غيرها، فلما انتهى الغناءُ إليها سوَّتْ عودها، واندفعت تغنّي بأبيات قديمة وهي:

غَزالٌ قد حكى بدرَ التَّمام

كشمسٍ قد تجلَّت من غَمام

سَبى قلبي بألحاظٍ مِراضٍ

وقَدِّ الغصنِ في حُسن القّوام

خضعتُ خضوعَ صَبٍّ مستكينٍ

له وذَللتُ ذِلَّةَ مُستهام

فَصِلني يا فديتُكَ في حَلالٍ

فما أهوى وصالًا في حَرام

الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقولِ إذا وقع القبولُ والموافقة: الإشارةُ بلحظِ العين، وإنه ليقومُ في هذا المعنى المقامَ المحمودَ، ويبلغ المبلغَ العجيبَ، ويُقطع به ويُتواصَلُ، وَيُوعَدُ وَيُهَدَّد، ويُقْبَضُ وَيُبْسَط، ويُؤمَرُ وَيُنْهَى، وتُضربُ به الوعود، وَيُنبَّه على الرقيبِ، وَيُضْحَك وَيُحْزَنُ، وَيُسألُ وَيُجاب، وَيُمْنَعُ وَيُعْطَى.

ولكلِّ واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ لا يُوقَفُ على تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكنُ تصويره ولا وصفُهُ إلا بالأقل منه. وأنا واصفُ ما تيسَّرَ من هذه المعاني:

فالإشارةُ بمؤخَرِ العين الواحدةِ نهيٌ عن الأمر، وتفتيرُهَا إعلامٌ بالقبولِ، وإدامةُ نظرها دليلٌ على التوجُّع والأسفَ، وكسرُ نظرها آيةُ الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليلٌ على التهديد، وَقَلْبُ الحَدَقَةِ إلى جهةٍ ما ثم صرفها بسرعةٍ تنبيهٌ على مُشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتيهما سؤال، وقلبُ الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أنّ جوهرها أرفعُ الجواهر، وأعلاها مكانًا؛ لأنها نوريّة لا تُدَركُ الألوانُ بسواها، ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها؛ لأنها تدرك بها أجرامُ الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وَتُرَى بها السماءُ على شدّة ارتفاعها وبُعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خِلْقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصلُ إليها بالنظر، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقّل الحركات، وليس هذا لشيءٍ من الحواسّ مثلِ الذوقِ واللمس، لا يُدركان إلا بالمجاورة، والسمع والشم، لا يدركان إلا من قريب. ودليل على ما ذكرناه من النّظر أنك ترى المُصوِّتَ قبل سماع الصوت، وإن تعمدْتَ إدراكهما معًا، ولو كان إدراكهما واحدًا لمَا تقدّمتْ العينُ السمع.

المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا: المراسلةُ بالكتب. وللكتب آفات، ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتبِ ولِحلّها في الماء وبمحو أثرها، فرُبَّ فضيحةٍ كانت بسببِ كتاب، وفي ذلك أقول:

عزيزٌ عليَّ اليومَ قطعُ كتابكمْ

ولكنَّهُ لم يُلْفَ للوُدِّ قاطِعُ

فآثرتُ أن يبقى ودادٌ ويمتحي

مِدادٌ فإن الفَرْعَ للأصلِ تابعُ

فكم من كِتابٍ فيه مِيتةُ ربِّه

ولم يَدْرِهِ إذ نمَّقتْهُ الأَصابعُ

وينبغي أن يكون شكلُ الكتاب ألطفَ الأشكال، وجنسُه أملحَ الأجناس؛ ولعمري إن الكتاب لَلِسانٌ في بعض الأحايين، إما لحَصَرٍ في الإنسان، وإما لحياءٍ، وإما لهيبة. نعم، حتى إنَّ لوصول الكتاب إلى المحبوب، وعلم المُحبّ أنهُ قد وقع بيده، ورآه للذةً يجدها المحبُّ عجيبةً تقومُ مقامَ الرؤية، وإنَّ لرَدِّ الجوابِ والنظر إليه سرورًا يعْدِلُ اللقاءَ، ولهذا ترى العاشقَ يَضعُ الكتابَ على عينيه، وقلبه ويُعانقه.

ولعهدي ببعض أهل المحبة، ممن كان يتحرَّى ما يقولُ، ويحسنُ الوصف، ويعبِّر عما في ضميره بلسانه عبارةً جيدة، ويُجيدُ النظرَ، ويدقِّق في الحقائق، لا يَدَعُ المُراسلةَ وهو مُمكنُ الوصلِ، قريبُ الدار، داني المزار، ويَحكي أنها من وجوه اللذة.

وأما سقيُ الحِبْر بالدّمع فأعرفُ مَن كان يفعل ذلكن ويُقارضه محبوبه بِسَقْيِ الحبر بالرِّيق، وفي ذلك أقول:

سقيتُ بدَمعِ العين لمّا كتبتهُ

فِعالَ مُحبٍّ ليس في الودّ خائنا

فما زال ماءُ العين يَمْحو سُطُورَه

فيا ماءَ عيني قد محوتَ المحاسنا

غَدا بدُموعي أول الخط بيَّنا

وأضحى بدمعي آخرٌ الخط بائنا

السفير

ويقع في الحب بعد هذا - بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس: إرسالُ السفير. ويجب تخيُّره وارتياده واستجادته، فهو دليلُ عقلِ المرء، وبيده حياتُهُ وموتُهُ، وَسَتْرُهُ وفضيحته، بعد الله تعالى. فينبغي أن يكون الرسولُ ذا هيئةٍ، حاذقًا يكتفي بالإشارة، ويقرطسُ[13] عن الغائب، ويُحْسِنُ من ذات نفسه، ويَضَعُ من عَقله ما أغفله باعثه، ويؤدّي إلى الذي أرسله كلَّ ما يشاهد على وجهه، كاتمًا للأسرار، حافظًا للعهد، قنوعًا ناصحًا. ومن تعدَّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها. وفي ذلك أقول شعرًامنه:

رسولُكَ سيفٌ في يَمينكَ فاستجدْ

حُسامًا ولا تضربْ به قبل صَقْلِهِ

فمن يكُ ذا سيفٍ كَهَامٍ فضُرُّهُ

يعودُ على المعنيِّ منه بجهله

وأكثر ما يستعملُ المحبُّون في إرسالهم إلى من يُحبونه، إما خاملًا لا يُؤْبَهُ له ولا يُهتدَى للتحفّظ منه، لصباه أو لهيئة رثةٍ، أو بذاذةٍ في طلعته؛ وإما جليلًا لا تلحقه الظِّنن لنسكٍ يُظهره، أو لسنٍّ عالية قد

بلغها. وما أكثر هذا في النساء، ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح.

خبر:

وإني لأعرفُ من كانت الرسولَ بينهما حمامةٌ مؤدَّبة، ويُعْقَدُ الكتابُ في جناحها، وفي ذلك أقول منها:

تخَيَّرها نوحٌ فما خاب ظنُّه

لديها وجاءت نحوَه بالبشائرِ

سأودِعها كُتُبي إليكَ فهاكها

رَسائلَ تُهْدَى في قوادم طائرِ

صفات المُحِبّ:
طيّ السِرِّ

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان، وجحودُ المحبِّ إن سئل، والتصنُّع بإظهار الصبر، وأن يُرِي أنه عِزهاةٌ[14] خليّ.

ويأبى السرُّ الدفين، ونارُ الكَلَفِ المتأججةُ في الضلوع، إلا ظهورًا في الحركاتِ والعين، ودبيبًا كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر. وقد يمكن التمويهُ في أوّل الأمر على غير ذي الحسِّ اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال.

وربما يكون السببَ في الكتمان تَصاونُ المحبِّ عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمةِ عند الناس، لأنها بزعمه من صفاتِ أهل البطالة، فيفرُّ منها ويتفادى. وما هذا الوجه بصحيح، فَبَحَسْب المرء المسلم أن يعفَّ عن محارم الله - عز وجل - التي يأتيها باختياره ويحَاسَب عليها يوم القيامة.وأما استحسانُ الحسن وتمكّن الحب فطبعٌ لا يُؤمَرُ به، ولا يُنْهى عنه؛ إذ القلوبُ بيد مُقَلِّبها. ولا يَلزمه غيرُ المعرفةِ والنظر في فَرْق ما بينَ الخطأ والصواب، وأن يعتقدَ الصحيحَ باليقين. وأما المحبة فخِلقة، وإنما يملكُ الإنسانُ حركاتِ جوارِحه المكتسبة.

خبر:

وإني لأعرفُ بعضَ من امتُحن بشيء من هذا، فَسَكَنَ الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْدَه إلى أن غَلُظَ الأمر، وَعَرَفَ ذلك في شمائله مَنْ تعرَّضَ للمعرفة ومَنْ لم يتعرَّض. وكان مَن عَرَّضَ له بشيء نَجَهَهُ[15] وقبَّحَهُ، إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقَهُ في إنكاره وتكذيبَ من ظنٍّ به غير ذلك، فَسُرَّ بهذا.

ولعهدي به يومًا قاعدًا ومعه بعضُ من كان يُعَرِّضُ له بما في ضميره، وهو ينتفي غايةَ الانتفاء، إذ اجتاز بهما الشخصُ الذي كان يُتَّهَمُ بعلاقته، فما هو إلا أن وقعتْ عينُهُ على محبوبه حتى اضطرب، وفارق هيئتَهُ الأولى، واصفرَّ لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسْن تثقيف، فقطعَ كلامَه المتكلمُ معه قلقًا، واسترعى ما كان فيه من ذكره. فقيل له: ما عدا عما بدا؟ فقال: هو ما تظنّون، عَذَرَ مَنْ عذر، وَعَذَلَ مَنْ عذل.

وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو يُنفر به. فإني أدري من كان محبوبه له سكنًا وجليسًا، لو باح بأقلِّ سبب من أنه يهواه لكان منه "مناطَ الثريا قد تعلّتْ نجومُها"؛ وهذا ضرب من السياسة. ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوقِ الغاية وأبعد النهاية، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد، فصار لا يصلُ إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب وتمنّع الثقة بملك الفؤاد، وذهب ذلك الانبساطُ، ووقع التصنُّع والتجنّي، فكان أخًا فصار عبدًا، ونظيرًا فعاد أسيرًا، ولو زاد في بَوْحِهِ شيئًا إلى أن يعلَم خاصَّة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطَّيفِ، ولانقطعَ القليلُ والكثير، وَلَعادَ ذلك عليه بالضرر.

وربما كان من أسباب الكتمان الحياءُ الغالبُ على الإنسان. وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحبُّ من محبوبه انحرافًا وصدًّا، ويكون ذا نفس أبيّة، فيستتر بما يجد لئلا يشمَت به عدوّ، أو ليريه من ومَن يُحبّ، هَوَانَ ذلك عليه.

الإذاعة

وقد تعرض في الحب الإذاعة، وهو من مُنْكَرِ ما يحدُث من أعراضه. ولها أسباب: منها أن يُريدَ صاحبُ هذا الفعل أن يتزَيّا بزيّ المحبين، ويدخلَ في عِدادهم. وهذه خِلابةٌ لا تُرْضَى، وتجليحٌ بغيض[16]، ودعوًى في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب وتسوُّر الجهرِ على الحياء، فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صَرْفًا ولا عَدْلًا. وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحَكُّمِهِ على العقل، حتى يمثل الحَسنُ في تمثال القبيح، والقبيحُ في هيئة الحسن. وهنالك يرى الخيرَ شرًا، والشر خيرًا. وكم مَصونِ الستر، مُسبَلِ القِناع، مسدولِ الغِطاء قد كشف الحبُّ سِتْرَهُ مثلًا، وأهمل حِماهُ فصار بعد الصيانةِ عَلَمًا، وبعد السكون مثلًا، وأحبُّ شيءٍ إليه الفضيحةُ فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النّافض عند ذكره، ولطالت استعاذتُهُ منه، فَسَهُلَ ما كان وعرًا، وهانَ ما كان عزيزًا، ولانَ ما كان شديدًا.

ولعهدي بفتًى من سَرَواتِ الرجال وعِلْية إخواني قد دُهِي بمحبة جارية مقصورةٍ، فَلُمَّ[17] بها، وقطعه حبُّها عن كثيرٍ من مصالحه، وظهرت آياتُ هواه لكلِّ ذي بصر، إلى أن كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه.

خبر:

حدّثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: كنت بين يدي والدي وقد أمرني بكتاب أكتبه، إذ لمحتْ عيني جاريةً كنتُ أكلَفُ بها، فلم أملكْ نفسي، ورميتُ الكتاب عن يدي، وبادرتُ نحوها. وبُهت أبي وظنَّ أنّه عرض لي عارض؛ ثم راجعني عقلي، فمسحتُ وجهي، ثم عُدتُ واعتذرتُ بأنه غَلبني الرُّعاف.

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب، وفسادٌ في التدبير، وضعفٌ في السياسة؛ وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنَّة وطريقةٌ، متى تعدّاها الطالب، أو خَرُقَ في سلوكها انعكس عملُهُ عليه، وكان كَدّه عناءً، وتعبُهُ هباء، وبحثه وباء. وكلما زاد عن وجه السِّيرةِ انحرافًا، وفي تجنبها إغراقًا، وفي غير الطريق إيغالًا، ازداد عن بلوغ مراده بعدًا.

الطاعة

ومن عجيب ما يقعُ في الحبِّ طاعةُ المحبِّ لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسرًا إلى طباع من يحبه، وربما يكون المرءُ شَرسَ الخُلُق، صعبَ الشكيمة، جَموحَ القيادة، ماضيَ العزيمة، حَمِيَّ الأنف، أبيَّ الخَسْفِ، فما هو إلا أن يتنسمَ نسيمَ الحب، ويتورَّط غَمْرَهُ، ويعومَ في بحره، فتعودَ الشراسةُ ليانًا، والصعوبةُ سهالةً، والمضاءُ كلالة، والحمية استسلامًا.

وربما كان المحبوب كارهًا لإظهار الشكوى، متبرمًا بسماع الوجد، فترى المُحبَّ حينئذ يكتُم حزنَهُ، ويكظِمُ أسفه، وينطوي على علّته، وإن الحبيب مُتجنٍّ، فعندها يقع الاعتذارُ عن كلّ ذنب والإقرارُ بالجريمة، والمرءُ منها بريء، تسليمًا لقوله، وتركًا لمخالفته. وإني لأعرفُ من دُهي بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاعِ العتاب عليه والسخطِ وهو نقيّ الجلد.

ولا يقولَنّ قائلٌ: إن صبرَ المحبِّ على ذلة المحبوب دَناءةٌ في النفس، فهذا خطأ، وقد علمنا أنّ المحبوبَ ليس كفؤًا، ولا نظيرًا فيقارَضَ بأذاه، وليس سبُّه وجفاه مما يُعَيَّرُ به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء، ولا في مقاعد الرؤساء، فيكون الصبر مستجرًّا للمذلة، والضراعةُ قائدةً للاستهانة؛ فقد ترى الإنسان يكلف بأَمَته التي يملك رقّها، ولا يحولُ حائلٌ بينه وبين التعدّي عليها، فكيف الانتصاف منها. وسبل الامتعاض من السبِّ غير هذه، إنما ذلك بين عِلية الرجال الذين تُحْصَى أنفاسهم، وتتبع معاني كلامهم، فتوجّه لها الوجوه البعيدة؛ لأنهم لا يُوقعونها سدًى، ولا يُلقونها هملًا، وأما المحبوبُ فصَعْدة ثابتة، وقضيبٌ مُنآد، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى. وفي ذلك أقول:

ليس التذلُّلُ في الهوى يُستنكَرُ

فالحُبُّ فيه يخضَعُ المُستكبرُ

آفات الحب:
العاذل

وللحُبِّ آفات، فأوَّلها العاذل. والعذّال أقسام:

1 فأولهم صديقٌ قد أُسْقِطَتْ مؤنُة التحفُّظ بينك وبينه، فعَذْلُه أفضلُ من كثير المساعدات، وهو من الحضّ والنهي، وفي ذلك زاجرٌ للنفس عجيب، وتقوية لطبيعةٍ بها حَرَضٌ وَغَمَل[18]، ودواء تستدُّ عليه الشهوة، ولا سيما إن كان رفيقًا في قوله، حَسَنَ التوصّل إلى ما يُوردُ من المعاني بلفظه، عالمًا بالأوقات التي يُؤكَّد فيها النهي، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر، والساعاتِ التي يكون فيها واقفًا بين هذين، على قدر ما يرى من تَسَهُّلِ العاشق وتوعُّرِهِ، وَقَبوله وَعِصْيانِهِ.

2 ثم عاذل زاجر، لا يفيق أبدًا من المَلامة، وذلك خطبٌ شديد، وعبءٌ ثقيل. ووقَع لي مثلُ هذا، وذلك أن أبا السريّ عمار بن زياد صديقنا أكثر من عذلي على نحونَحَوْتُهُ، وأعان عليَّ بعضَ من لامني في ذلك الوجه أيضًا، وكنتُ أظنُّ أنه سيكونُ معي، مُخطئًا كنت أو مصيبًا، لوكيد صداقتي، وصحيحِ أخوّتي به.

ولقد رأيتُ من اشتدَّ وجده، وَعَظُم كَلَفُهُ، حتى كان العَذْلُ أحبَّ شيء إليه، ليُري العاذلَ عصيانَهُ ويستلذّ مخالفَتَهُ، ويحصِّل مقاومته لِلاَئِمِه وغلبته إياه، كالملكِ الهازم لعدوّه، والمجادل الماهر الغالب لخصمه، ويُسَرُّ بما يقعُ منه في ذلك، وربما كان هو المستجلبَ لعذل العاذِل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل. وفي ذلك أقول أبياتًا منها:

كأنّني شاربٌ بالعَذْلِ صافيةً

وباسم مولاي بعدَ الشُّرب أَنْتَقِلُ()

الرقيب

ومن آفات الحبِّ الرقيبُ. والرقباء أقسام:

1 فأولهم مُثْقِل بالجلوس، غيرَ متعمِّدٍ، في مكان اجتمع فيه المرءُ مع محبوبه، وعَزَمَا على إظهار شيء من سرِّهما، والبوح بوجدهما، والانفراد بالحديث. ولقد يعرضُ للمُحبِّ من القلق بهذه الصفة ما لا يعرضُ له مما هو أشدّ منها.

خبر:

شاهدتُ يومًا مُحبين في مكانٍ قد ظنَّا أنهما انفردا فيه وتأهبّا للشكوى، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة، ولم يكن الموضعُ حمًى، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه، فرآني فَعَدل إليَّ، وأطال الجلوسَ معي، فلو رأيتَ الفتى المحبَّ وقد تمازح الأسفُ البادي على وجهه مع الغضب، لرأيتَ عجبًا.

2 ثم رقيبٌ قد أحسَّ من أمرهما بطَرف، وتوجَّسَ من مذهبهما شيئًا، فهو يريدُ أن يستقري حقيقة ذلك، فيُدْمِنُ الجلوسَ، ويطيلُ القعودَ، ويَتَقَفَّى الحركات، ويرمُق الوجُوهَ، ويحصي الأنفاسَ، وهذا أعدى من الجَرب. وإني لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطشَ رقيبًا هذه صفته.

3 ورقيبٌ على المحبوب، فذلك لا حيلة فيه إلا بترضِّيه. وإذا أرضي فذلك غاية اللذة، وهذا الرقيبُ هو الذي ذكرتْه الشعراء في أشعارها. ولقد شاهدتُ مَن تلطَّفَ في استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيبًا له، ومتغافلًا في وقت التغافل، ودافعًا عنه وساعيًا له.

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلةٌ، ولا وُجِدَ إلى تَرضِّيه سبيل، فلا طمعَ إلا بالإشارة بالعين همسًا وبالحاجب أحيانًا، والتعريض اللطيف بالقول، وفي ذلك مُتعةٌ وبلاغٌ إلى حينٍ، يَقنعُ به المشتاق.

نصير المحب

ومن الأسباب المتمنّاة في الحبّ أن يهبَ الله - عزّ وجل - للإنسان صديقًا مخلصًا، لطيفَ القول، بسيطَ الطول، حسنَ المأخذ، دقيقَ المنفذ، متمكن البيان، مُرهف اللسان، جليلَ الحلم، واسعَ العلم، قليلَ المخالفة، عظيمَ المساعفة، شديد الاحتمال، صابرًا على الإدلال، جمَّ الموافقة، جميلَ المخالفة، مستويَ المطابقة، محمودَ الخلائق، مكفوفَ البوائق، محتومَ المساعدة، كارهًا للمباعدة، نبيل الشمائل، مصروفَ الغوائل، غامضَ المعاني، عارفًا بالأماني، طيّب الأخلاق، سريَّ الأعراق، مكتومَ السرّ، كثيرَ البر، صحيحَ الأمانة، مأمون الخيانة، كريمَ النفس، نافذ الحسّ، صحيح الحدس، مضمونَ العَوْنِ، كاملَ الصَّوْنِ، مشهورَ الوفاء، ظاهر الغنَاء، ثابتَ القريحة، مبذولَ النصيحة، مستيقَنَ الوداد، سهلَ الانقياد، حسنَ الاعتقاد، صادقَ اللهجة، خفيف المهجة، عفيفَ الطباع، رحبَ الذراع، واسعَ الصدر، متخلقًا بالصبر، يألفُ الإمحاض، ولا يعرفُ الإعراض، يستريح إليه ببلابله، ويشاركُهُ في خلوةٍ فكره، ويفاوضه في مكتوماته، وإن فيه للمحبِّ لأعظمَ الراحات، وأين هذا؟! فإن ظَفِرت به يداك فشُدَّهما عليه شدَّ الضنين، وأمْسِكْ بهما إمساكَ البخيل، وَصُنْهُ بطارفك وتالدك، فمعه يكملُ الأنْسُ، وتنجلي الأحزان، وَيَقْصُرُ الزمانُ، وتطيبُ الأحوال. ولن يفقدَ الإنسانُ من صاحب هذه الصفة عونًا جميلًا، ورأيًا حسنًا. ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراء والدخلاءَ كي يخففوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور وطُوِّقُوهُ من باهظِ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم، ويستمدّوا بكفايتهم، وإلا فليس في قوةِ الطبيعة أن تقاوِمَ كلَّ ما يَرِد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها.

ولقد كان بعضُ المحبين - لِعُدمِهِ هذه الصفة من الإخوان، وقلة ثقته منهم لما جرَّبه من الناس وأنه لم يَعْدَمْ ممن باح إليه بشيء من سرِّه أحدَ وجهين: إماَ إزراءً على رأيه وإما إذاعة لسره - أقام الوحدةَ مقامَ الأنْسِ، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس، ويناجي الهواء، ويكلم الأرضَ، ويجدُ في ذلك راحةً كما يجدُ المريض في التأوه، والمحزونُ في الزفير؛ فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم ينصَّ منها شيءٌ باللسان، ولم يُسْتَرَحْ إلى الشكوى لم يلبثْ أن يهلكَ غمًا، ويموت أسفًا.

وما رأيت الإسعاد[19] أكثر منه في النساء، فعندهنّ من المحافظة على هذا الشأن، والتواصي بكتمانه، والتواطؤ على طيّه إذا اطّلَعْنَ عليه، ما ليس عند الرجال، وما رأيتُ امرأةً كشفت سرَّ متحابَّين إلا وهي عند النساء ممقوتةٌ مستثقَلَةٌ مرميَّة عن قوسٍ واحدة. وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات؛ لأن الفتياتِ منهنّ ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في النُّدرة، وأما العجائز فقد يئِسن من أنفسهن فانصرف الإشفاقُ محضًا إلى غيرهن.

خبر:

وإني لأعلم امرأةً مُوسرةً ذاتَ جَوَارٍ وخَدَم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشقُ فتًى من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معانيَ مكروهةً، وقيل لها: إن جاريتك فلانة تعرفُ ذلك، وعندها جلية أمرها، فأخذتها وكانت غليظةَ العقوبة، فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاءِ ما لا يَصبُر على مثله جُلَداءُ الرجال، رجاءَ أن تبوحَ لهَا بشيءٍ مما ذُكر لها، فلم تفعل البتة.

من وجوه الحب
الوصل

ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيعٌ، وَمَرْتَبَةَ سريَّة، ودرجة عالية، وسعدٌ طالع، بل هو الحياةَ المجدَّدة، والعيش السنيُّ، والسرور الدائم، ورحمةٌ من الله عظيمة. ولولا أن الدنيا مَمَرٌّ ومحنةٌ وكدرٌ، والجنة دارُ جزاءٍ وأمانٍ من المكاره، لقلنا إنّ وَصْلَ المحبوبِ هو الصفاءُ، الذي لا كَدَرَ فيه، والفرحُ الذي لا شائبةَ فيه، ولا حزنَ معه، وكمالُ الأمانيّ، ومنتهى الأراجي. ولقد جرَّبتُ اللذاتِ على تصرفها، وأدركتُ الحظوظَ على اختلافها، فما للدنوِّ من السلطان، ولا للمال المستفاد، ولا الوجودِ بعد العدم، ولا الأوبةِ بعد طول الغيبة، ولا الأمنِ من بعد الخوف، ولا الراحة على المال، من الموقع في النفس ما للوصل، ولا سيما بعدَ طولِ الامتناع، وحلول الهجر، حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لهيبُ الشوق، وتتضرَّم نار الرجاء. وما إصنافُ[20] النبات بعد غِبِّ القَطْر، ولا إشراقُ الأزاهير بعد إقلاع السحاب ... بأحسن من وصل حبيبٍ قد رُضيتْ أخلاقه، وحمدت غرائزه.

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيد، وهو ينقسم قسمين: أحدهما الوعد بزيارة المحبّ لمحبوبه، والثاني: انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه.

خبر:

وإني لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، وكثر غمّها به، وطال أسفها إلى أن ضَنِيتْ بحبه، وهو بغرارة الصِّبا لا يشعر؛ ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه؛ لأنها كانت بكرًا بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه، فلما تمادى الأمر - وكانا إلفين في النشأة - شَكتْ ذلك إلى امرأة جَزْلةِ الرأي كانت تثق بها لتولّيها تربيتها، فقالت لها: عَرِّضي له بالشعر، ففعلت المرَّة بعد المرّة، وهو لا يأبه في كلّ هذا. ولقد كان لَقِنًا ذكيًا، ولكنه لم يظنَّ ذلك فيميلَ إلى تَفْتِيشِ الكلام بوهمه، إلى أن عِيلَ صبرُها، وضاق صدرها، ولم تمسك نَفْسَها في قَعْدَةٍ كانت لها معه في بعض الليالي مُنْفَرِدِيْن، ولقد كان - يعلم الله - عفيفًامُتصاونًا بعيدًا عن المعاصي، فلما حَانَ قيامُها عنه بَدَرَتْ إليه فقبَّلَتْه في فَمه، ثم وَلّت في ذلك الحين، ولم تكلّمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها. كما أقول في أبيات لي:

كأنها حين تخطو في تأوُّدها

قضيبُ نرجسةٍ في الرَوض مَيَّاس

كأنما خطوها في قلبِ عاشقها

ففيه من وقعها خَطْرٌ ووسواسُ

كأنما مشيُها مشيُ الحَمامةِ لا

كدٌّ يُعابُ ولا بُطءٌ به باسُ

فبُهت، وسُقط في يده، وفتّ في عضده، ووجدَ في كبده، وَعَلتْهُ وجمةَ. فما هو إلا أن غابت عن عينه، ووقع في شَرَكِ الرَّدَى، واشتعلت في قلبه النار، وتصعَّدَتْ أنفاسه، وترادفت أوجاله، وكثر قلقه، وطال أرقه، فما غمض تلك الليلةَ عينًا، وكان هذا بدءَ الحب بينهما دهرًا، إلى أن جَذّت جملتها يدُ النوى؛ وإن هذا لمن مصايد إبليس، ودواعي الهوى التي لا يقفُ لها أحدٌ إلا من عصمه الله عز وجل.

ومن الناس من يقول: إن دوام الوصل يودي بالحب، وهذا هجينٌ من القول، إنما ذلك لأهل المَللِ، بل كلما زاد وصلًا زاد اتصالًا:

وعنّي أخبرك أنّي ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادني إلّا ظمًا، وهذا حكمُ من تداوى بدائِهِ، وإن رفه عنه شيئًا ما. ولقد بلغتُ من التمكن بمن أحبُّ أبعدَ الغايات التي لا يجد الإنسانُ وراءها مَرْمَى، فما وجدتُني إلا مستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة، ولا رهقتني فترة.

وقد ضمني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أحبُّ فلم أُجِلْ خاطري في فنٍّ من فنون الوَصل إلا وجدتُهُ مقصَّرا عن مرادي، وغيرَ شافٍ وَجْدي، ولا قاضٍ أقلَّ لُبانة من لُباناتي، ووجدتُني كلما ازددتُ دنوًا ازددتُ ولوعًا، وقدحتْ زنادُ الشوق نارَ الوجدِ بين ضلوعي، فقلت في ذلك المجلس:

وَدِدْت بأنَّ القلب شُقَّ بِمُدْيَةٍ

وأُدخلتِ فيه ثم أُطْبِقَ في صَدري

فأصبحتِ فيه لا تحلِّينَ غيرَه

إلى مُقْتَضَى يوم القيامة والحَشْرِ

تعيشين فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ

سكنتِ شِغافَ القَلبِ في ظُلَمَ القبرِ

وما في الدنيا حالة تعدل مُحِبَّين إذا عدما الرقباءَ، وأَمِنَا الوشاةَ، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبَعُدا عن الملل، وفقدا العذّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقًا دارًّا، وعيشًا قارًّا، وزمانًا هاديًا، وكان اجتماعُهما على ما يُرْضِي الربَّ من الحلال، وطالت صُحبتهما، واتصلت إلى وقت حُلول الحِمامِ الذي لا مردَّ له ولا بدَّ منه، هذا عطاءٌ لم يحصل عليه أحد، وحاجةٌ لم تُقضَ لكلِّ طالب. ولولا أن مَع هذه الحال الإشفاقَ من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله - عزّ وجلّ -، من حُلول فراق لم يكتسب، واخترام منَيِّة في حال الشباب، أو ما أشبه ذلك، لقلتُ إنها حالٌ بعيدة من كلِّ آفة، وسليمةٌ من كلِّ داخلة.

وروي عن زياد بن أبي سفيان أنه قال لجُلسائه: مَن أنعمُ الناسِ عيشةً؟ قالوا: أمير المؤمنين. فقال: وأين ما يلقى من قريش؟ قيل: فأنت. قال: أين ما ألقى من الخوارج والثغور؟ قيل: فمن أيها الأمير؟ قال: رجلٌ مسلمٌ، له زوجة مسلمةٌ، لهما كفافٌ من العيش، قد رَضِيَتْ به ورضيَ بها، لا يعرفنا ولا نعرفه.

ولقد حدثتني امرأةٌ أَثقُ بها أنها شاهدتْ فتًى وجاريةً كان يَجِدُ كلّ واحدٍ منهما بصاحبه فَضْلَ وَجْدٍ، قد اجتمعا في مكانٍ على طرب، وفي يدِ الفتى سكينٌ يقطع بها بعضَ الفواكه، فجرَّها جرًّا زائدًا، فقطع إبهامَهُ قطعًا لطيفًا ظهر فيه دم، وكان على الجارية غلالة قَصَبٍ خَزائنية لها قيمة، فَصَرَّفَتْ يدها وَخَرَقَتْها، وأخرجتْ منها فضلةً شَدَّ بها إبهامه.

وأما هذا الفعل للمحبِّ فقليل في ما يجب عليه، وفرضٌ لازم، وشريعة مؤدَّاة، وكيف لا؟ وقد بذل نفسه، ووهب روحه، فما يَمْنَعُ بعدهما.

خبر:

وأنا أدركتُ بنتَ زكريا بن يحيى التميمي، وكانت متزوجةً بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى بن إسحاق، فعاجلته المنيةُ وهما في أغضّ عيشهما وأنضر سرورهما، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دِثارٍ واحدٍ ليلةَ مات، وجعلته آخر العهدِ به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها.

وإن للوصل المختلس الذي يُخاتَلُ به الرقباء، وَيُتَحَفَّظُ به من الحضّر، مثل الضحك المستور، والنحنحة، وجولان الأيدي، والضغط بالأجناب، والقرص باليد والرجل، لموقعًا من النفسِ شهيًا.

الهجر

ومن آفات الحب أيضًا الهجر، وهو على ضروب:

1 فأولها؛ هجرٌ يوجبه تحفظ من رقيب حاضر؛ وإنه لأحْلى من كل وصل. ولولا أن ظاهرَ اللفظ وحكمَ التّسمية يوجبُ إدخالَهُ في هذا الباب لرجعتُ به عنه، ولأجْللته عن تسطيره فيه. فحينئذ ترى الحبيبَ منحرفًا عن مُحبه، مقبلًا بالحديثِ على غيره، مُعَرّضًا بمعرّض لئلا تلحق ظنته أو تسبق استرابته؛ وترى المحب أيضًا كذلك، ولكنَّ طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالرغم، فتراه حينئذٍ منحرفًا كمقبلٍ، وساكتًا كناطقٍ، وناظرًا إلى جهةٍ نَفْسُهُ في غيرها. والحاذق الفطنُ إذا كشف بوهمه عن باطنِ حديثهما عَلِمَ أن الخافيَ غيرُ البادي، وما جَهَرَ به غيرُ نفس الخبر، وإنه لمن المشاهد الجالبة للفتن، والمناظرِ المحرّكة للسواكنِ، الباعثة للخواطرِ، المهيّجة للضمائرِ، الجاذبة للفتّوة.

2 ثم هجر يوجبه التدللُ، وهو ألذ من كثير الوصال، ولذلك لا يكون إلا عن ثقةِ كلِّ واحدٍ من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحَّةِ عقده، فحينئذ يُظهر المحبوبُ هجرانًا ليرى صَبْرَ محبه، وذلك لئلا يصفو الدهر البتة، وليأسفَ المحبّ إن كان مُفرطَ العشق عند ذلك، لا لما حلَّ، لكن مخافةَ أن يترقّى إلى ما هو أجلّ، فيكون ذلك الهجرُ سببًا إلى غيره، أو خوفًا من آفةِ حادثِ ملل.

ولقد عرض لي في الصبا هجرٌ مع بعض من كنت آلف، على هذه الصفة، وهو لا يلبثُ أن يضمحلَّ ثم يعود؛ فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعرًا بديهيًا ختمتُ كلَّ بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة:

وعَهدي بعهدٍ كان لي منه ثابتٍ

"يلوح كباقي الوشْم في ظاهر اليدِ"

وقفتُ به لا مُوقنًا برجوعه

"ولا آيسًا أَبكي وأُبكي إلى الغدِ"

إلى أن أَطال الناس عَذْلي وأكثروا

"يقولون لا تَهلِكْ أسًى وتجلَّدِ"

3 ثم هجرٌ يوجبه العتابُ لذنب يقعُ من المحبّ، وهذا فيه بعضُ الشدة، لكنّ فرحةَ الرجعة وسرورَ الرضى يعدلُ ما مضى، فإنَّ لرضى المحبوب بعد سخطه لذةً في القلب لا تعدلها لذة، وموقعاً من الروح لا يفوقُهُ شيءٌ من أسباب الدنيا. وهل شاهد مشاهدٌ، أو رأتْ عينٌ، أو قام في فكر، ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كلُّ رقيب، وَبَعُد عنه كلُّ بغيضٍ، وغاب عنه كلُّ واشٍ، واجتمع فيه مُحِبَّان قد تصارما لذنبٍ وَقع من المحبّ منهما، وطال ذلك قليلًا، وبدأ بعضُ الهجر، ولم يكن ثمَّ مانعٌ من الإطالة للحديث، فابتدأ المحبُّ في الاعتذار والخضوع والتذلّل والإدلاء بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال، فطورًا يدلّ ببراءته، وطورًا يرد بالعفو، ويستدعي المغفرة، ويقرُّ بالذنب ولا ذنب له،

والمحبوبُ في كلِ ذلك ناظرٌ إلى الأرض يُسارقهُ اللحظ الخفيّ، وربما أدامه فيه، ثم يبسم مخفيًا لتبسمه، وذلك علامة الرضى، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وتقبل القول، وامتحت ذنوبُ النقل، وذهبت آثارُ السخط، ووقع الجوابُ بنعم وذنبك مغفورٌ، لو كان، فكيف ولا ذنب؛ وختما أمرهما بالوصل الممكن، وسقوط العتاب والإسعاد، وتفرقا على هذا.

هذا مكان تتقاصر دونَه الصفات وتتلكَّنُ بتحديده الألسنة. ولقد وطئتُ بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضِرَ الملوك، فما رأيتُ هيبةً تعدلُ هيبةَ محبٍّ لمحبوبه؛ ورأيتُ تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكُّمَ الوزراء، وانبساط مدبّري الدول، فما رأيت أشد تبجُّحا، ولا أعظمَ سرورًا بما هو فيه من محبٍّ أيقنَ أن قلب محبوبه عنده، ووثق بميله إليه وصحة مودته له. وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقفَ المتَّهمين بعظيم الذنوب مع المتمرّدين الطاغين، فما رأيتُ أذلَّ من موقفِ محبٍّ هَيمَان بين يدي محبوبٍ غضبان، قد غمره السخطُ، وغلبَ عليه الجفاء.

ولقد امتحنتُ الأَمْرَين، وكنُت في الحالةِ الأولى أشدَّ من الحديد، وأنفذ من السيف، لا أجيبُ إلى الدنيَّة، ولا أساعدُ على الخضوع، وفي الثانية أذلَّ من الرداءِ، وألينَ من القطن، أبادرُ إلى أقصى غاياتِ التذللِ لو نفع، وأغتنمُ فرصةَ الخضوع لو نجع، وأتحلل بلساني، وأغوصُ على دقائق المعاني ببياني، وأفتنُّ القول فنونًا، وأتصدَّى لكلِّ ما يوجب الترضّي.

والتجنّي بعضُ عوارضِ الهجران، وهو يقع في أول الحبِّ وآخره، فهو في أوله علامةٌ لصحِّة المحبة، وفي آخره علامةٌ لفتورها، وباب للسلوّ.

4 ثم هجرٌ يُوجبه الوُشاةُ، وقد تقدَّم القولُ فيهم وفيما يتولد من دبيبِ عقاربهم، وربما كان سببًا للمقاطعة البتة.

5 ثم هجر الملل، والمللُ من الأخلاقِ المطبوعة في الإنسانِ، وأحرى لمن دُهي به ألا يصفوَ له صديقٌ، ولا يَصحَّ له إخاء، ولا يثبتَ على عهدٍ، ولا يصبرَ على إلفٍ، ولا تطولَ مساعدته لمُحبّ، ولا يُعْتَقَد منه ودٌّ ولا بَغضة. وأولى الأمور بالناس ألا يقرّبوه منهم، وأن يَفِرُّوا عن صحبته ولقائه، فلن يَظفروا منه بطائل، ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المُحبّين، وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجنّي والتظنّي والتعرض للمقاطعة؛ وأما من تزيّا باسم الحُب وهو مَلول فليس منهم، وحقُّهُ ألا يتجرعَ مذاقَهُ، وَيُنْفَى عن أهلِ هذه الصفة، ولا يدخل في جملتهم.

وما رأيت قط هذه الصفة أشدَّ تغلبًا منها على أبي عامر محمد بن أبي عامر، فلو وصفَ لي واصفٌ بعضَ ما علمته منه لما صَدَّقْتُهُ. وأهلُ هذا الطبع أسرعُ الخلقِ محبةً، وأقلهم صبرًا على المحبوب وعلى المكروه، والصّدّ؛ وانقلابهم عن الودِّ على قدر تسرعهم إليه؛ فلا تثقْ بملول، ولا تشغلْ به نفسك، ولا تُعَنِّها بالرجاء في وفائه. فإن دُفعتَ إلى محبته ضرورةً فعُدَّه ابن ساعته، واستأنِفْهُ كلَّ حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلوّنه، وقابِلْهُ بما يشاكِلُهُ.

ولقد كان أبو عامر يَرَى الجارية فلا يَصبرُ عنها، ويَحيقُ به من الاغتمام والهمِّ ما يكادُ أن يأتيَ عليه حتى يملكها، ولو حالَ دون ذلك شوكُ القتاد، فإذا أيقنَ بتصيُّرها إليه عادت المحبةُ نِفارًا، وذلك

الأنسُ شَرودًا، والقلقَ إليها قَلقًا منها، ونزاعه نحوها نزاعًا عنها، فيبيعها بأوكسِ الأثمان. هذا كان دأبَهُ حتى أتْلَفَ فيما ذكرنا عشراتِ ألوف الدنانير عددًا عظيمًا. وكان - رحمه الله - مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحِلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصِب الفخم والجاه العريض؛ وأما حُسْنُ وجهه وكمالُ صورته فشيء تقف الحدودُ عنه، وتكِلُّ الأوهام عن وصف أقلّه، ولا يتعاطى أحد وصفه.

الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضلِ الأخلاق في الحبِّ وغيره الوفاء؛ وإنه لمن أقوى الدلائل، وأوضح البراهين على طيب الأصلِ وشَرف العنصر، وهو يتفاضل بالتفاضلَ اللازم للمخلوقات. وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعالُ كلِّ امرئ تنبي بعنصرهِ

والعينُ تغنيك عن أن تطلبَ الأثرا

ومنها

وهل ترى قطُّ دِفْلَى أنبتتْ عِنبًا

أو تَذْخرُ النحلُ في أوكارِها الصِّبِرَا

1وأولُ مراتب الوفاءِ أن يفيَ الإنسانُ لمن يفي له، وهذا فرضٌ لازم وحقٌ واجبٌ على المُحبِّ والمحبوب، لا يحولُ عنه إلّا خبيثُ المحتدِ لا خلاقَ له ولا خَيْرَ عنده.

2 ثم مرتبة ثانية، وهو الوفاء لمن غدر، وهي للمُحبِّ دون المحبوب، وليس للمحبوب ها هنا طريقٌ ولا يلزمه ذلك، وهي خُطة لا يُطيقها إلا جَلْدٌ قويٌّ، واسعُ الصدر، حُرُّ النفس، عظيم الحِلْم، جليلُ الصبر، حَصيفُ العقل، ماجد الخلق، سالم النية. ومن قابَلَ الغدر بمثله فليس بمستأهلٍ للملامة، ولكن الحال التي قدمّنا تفوقها جدًا وتفوتها بعدًا.

3 ثم مرتبةٌ ثالثةٍ، وهي الوفاء مع اليأس الباتِّ وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون، وإن الوفاء في هذه الحالةِ لأجلُّ وأحسن منه في الحياةِ ومع رجاء اللقاء.

خبر:

ولقد حدَّثتني امرأة أثقُ بها أنها رأتْ في دار محمد بن وهب من ولد مولى عبد الرحمن الداخل، جاريةً رائعةً جميلةً، كان لها مولى، فجاءته المنية، فبيعت في تركته، فأبتْ أن ترضَى بالرجال بعده، وما جامعها رجلٌ إلى أن لقيتْ الله عز وجل؛ وكانت تُحسنُ الغناء، فأنكرتْ علمَها به، ورضيتْ بالخدمة والخروج عن جملة المتِّخذات للنسل واللذةِ والحالِ الحسنة وفاءً منها لمن قد دَثر، ووارتْه الأرض، والتأمت عليه الصفائح، ولقد رامها سيدها المذكورُ أن يضمَّها إلى فراشه مع سائر جواريه، ويُخْرجَها مما هي فيه، فأبت، فضربها غيرَ مرةٍ، وأوقع بها الأدب، فصبرت على ذلك كله، فأقامت على امتناعها؛ وإن هذا من الوفاء غريبٌ جدًّا.

وللوفاء شروطٌ على المحبين لازمةٌ: فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه، ويرعى غَيْبَتَهُ، وتستوي علانيته وسريرته، ويطوي شرَّهُ، وينشر خيره، ويغطّي على عيوبه، ويحسِّن أفعاله، ويتغافل عمّا يقع منه على سبيل الهفوةِ، ويرضى بما حَمَّلَهُ، ولا يكثر عليه بما ينفر منه.

البَيْن

وقد علمنا أنه لا بدَّ لكلِّ مجتمعٍ من افتراق، ولكلِّ دانٍ من تناء، وتلك عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين. وما شيءٌ من دواهي الدنيا يَعدلُ الافتراق، ولو سالت الأرواح به فضلًا عن الدموع كان قليلًا. وسمع بعضُ الحكماء قائلًا يقول: الفِراقُ أخو الموت، فقال: بل الموت أخو الفراق.

والبَيْن ينقسم أقسامًا:

1 فأولها مدة يوقَنُ بانصرامِها وبالعودة عن قريب، وإنه لشَجًى في القلب، وغُصَّة في الحلق لا تبرأُ إلا بالرَّجعة. وأنا أعلمُ من كان يَغيبُ من يُحبُّ عن بصره يومًا واحدًا، فيعتريه من الهَلَعِ والجزَع وشُغلِ البال وترادُفِ الكُرَب ما يكادُ يأتي عليه.

2 ثم بَيْنُ مَنْعٍ من اللقاء، وتَحظير على المحبوب من أن يراه مُحبه، فهذا - ولو كان من تحبه معك في دار واحدة - فهو بَيْنٌ؛ لأنّه بائِنٌ عنك، وإن هذا ليولِّدُ من الحزنِ والأسفِ غيرَ قليل، ولقد جرَّبناه فكان مُرًّا.

3 ثم بَيْنٌ يتعمَّده المحبُّ بعدًا عن قولِ الوشاة، وخوفًا أن يكونَ بقاؤه سببًا إلى منع اللقاء، وذريعةً إلى أن يفشو الكلام، فيقعَ الحجاب الغليظ.

4 ثم بَيْنٌ يولِّده المُحبُّ لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، وعُذرُهُ مقبولٌ أو مُطَّرَحٌ على قَدْرِ الحافزِ له إلى الرحيل.

ويقع في هذين الصنفين من البينِ الوداعُ، أعني رحيلَ المحبّ أو رحيلَ المحبوب. وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تُفْتَضَحُ فيها عزيمةُ كلِّ ماضي العزائم، وتذهب قوةُ كلِّ ذي بصيرة، وتسكبُ كلُّ عينٍ جَمَود، ويظهرُ مكنونُ الجوى. وهو فصلٌ من فصول البَين يجبُ التكلم فيه، كالعتاب في باب الهجر.

والوداع ينقسم قسمين، أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة، والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة، وربما لعله كان لا يمكن قبل ذلك البتة مع تجاوز المحالِّ وإمكانِ التلاقي، ولهذا تمنَّى بعضُ الشعراء البينَ ومدحَوا يومَ النوى، وما ذاك بِحَسَنٍ ولا بصواب ولا بالأصيلِ من الرأي، فما

يفي سرورُ ساعةٍ بحزن ساعات، فكيف إذا كان البين أيامًا وشهورًا وربما أعوامًا؟! وهذا سوءٌ من النظر، ومعْوَجٌّ من القياس، وإنما أثنيتُ على النّوى في شعري تمنيًا لرجوع يومها، فيكونَ في كلِّ يومٍ لقاءٌ ووداع.

وقد كنتُ أشد الناس كَلَفًا وأعظمهم حبًّا بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نُعْم. وكانت أمنيةَ المتمنِّي. وغايَة الحسن خَلْقًا وخُلُقًا وموافقةً لي، وكنتُ أبا عُذْرِهَا، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدارُ، واخترمتها الليالي ومرُّ النهار، وصارت ثالثة الترابَ والأحجار، وسنِّي حين وفاتها دونَ العشرين سنة، وكانت هي دوني في السنّ، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهرٍ لا أتجرَّدُ عن ثيابي، ولا تفترُ لي دمعةٌ على جُمود عيني وقلة إسعادها؛ وعلى ذلك فو الله ما سلوتُ حتى الآن، ولو قُبِلَ فداءٌ لفديتها بكلِّ ما أملك من تالدٍ وطارفٍ، وببعضِ أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيشٌ بعدها، ولا نسيتُ ذكرها، ولا أنسْتُ بسواها، ولقد عَفَّى حُبي لها على كلِّ ما قبله، وَحَرَّمَ ما كان بعده؛ ومما قلت فيها:

مهذبةٌ بيضاءُ كالشمسِ إن بَدَتْ

وسائرُ رَبَّاتِ الحجالِ نُجومُ

أطار هواها القلبَ عن مستقره

فبعد وقوعٍ ظَلَّ وهو يحومُ

واختلف الناسُ في أيِّ الأمرين أشدّ: البينُ أم الهجر؟ وكلاهما مُرتقًى صعبٌ، وموتٌ أحمرُ، وبليَّة سوداء، وَسَنةٌ شهباء، وكلٌّ يستبشع من هذين ما ضادَّ طبعَهُ، فأما ذو النفسِ الأبيةِ الأنوف، الحنَّانة الألوف، الثابتة على العهد، فلا شيء يعدل عنده مُصيبة البَين؛ لأنه أتى قصدًا، وتعمدته النوائبُ عمدًا، فلا يجدُ شيئًا يسلّي نفسه؛ ولا يصرِّف فكرتَه في معنى من المعاني إلا وجد باعثًا على صَبابته، ومحركًا لأشجانه، وعلةً لألمه، وحجةً لوجده، وحاضًا على البكاء على إلفه. وأما الهجر فهو داعية السلو، ورائدُ الإقلاع.

وأما ذو النفسِ التَّواقة، الكثيرةِ النزوع والتطلع القلوقِ العزوفِ فالهجرُ داؤُهُ وجالبُ حتفه، والبينُ له مَسلاةٌ وَمَنْسَاةٌ.

وأما أنا فالموتُ عندي أسهلُ من الفراق، وما الهجرُ إلا جالبُ للكمد فقط، ويوشكُ إن دام أن يُحدث أضرارًا.

القنوع

ولا بد للمحب، إذا حُرم الوصل، من القنوع بما يجد، وإنَّ في ذلك لمتعلِّلًا للنفس، وشغلًا للرجاء، وتجديدًا للمنى، وبعضَ الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكّن.

1فأولها الزيارة، وإنها لأملٌ من الآمال ومن سريٍّ ما يسنح في الدهر، مع ما تبدي من الخَفر والحياء، لما يعلمه كلٌّ واحد منهما مما في نفس صاحبه. وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحب محبوبه. وهذا الوجه واسع. والوجه الثاني أن يزور المحبوبُ مُحبَّه، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر.

2ومن القُنوع أن يُسرّ الإنسان ويرضَى ببعض آلات محبوبه، وإن له من النفس لموقعًا حسنًا، وإن لم يكن فيه إلا ما نصَّ الله تعالى علينا، من ارتداد يعقوبَ بصيرًا حين شَمَّ قميصَ يوسف عليهما السلام.

وما رأيتُ قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خُصَلَ الشعرِ مبخّرة بالعنبر مرشوشةً بماء الورد، وقد جُمِعَتْ في أصلها بالمصطكي وبالشمع الأبيض المصفّى، ولُفّت في تطاريفِ الوَشْي والخزِّ وما أشبه ذلك، لتكونَ تذكرة عند البين.

خبر:

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابنَ سهلٍ الحاجبَ بجزيرة صِقِلية، وذكر أنه كان غايةً في الجمال، فشاهده يومًا في بعض المتنزهات ماشيًا وامرأةٌ خلفه تَنظرُ إليه، فلما أَبْعَدَ أتت إلى المكان الذي قد أثّر فيه مشيه، فجعلت تقبله، وتلثمُ الأرض التي فيها أثر رجله.

وللشعراء في علة مَزَارِ الطيف أقاويلُ بديعةٌ بعيدة المرمى مخترِعة، كلٌّ سبَق إلى معنى من المعاني، فأبو إسحاق ابن سيّار النظام، رأسُ المعتزلة، جعل علةَ مزار الطيف خوفَ الأرواح من الرقيب المرقّب على لقاء الأبدان، وأبو تمام جعل علته أنّ نِكاح الطيفَ لا يفسدُ الحبّ، ونكاحَ الحقيقةِ يفسده. والبحتري جعلَ علّة إقبالِهِ استضاءَتَه بنارِ وجده، وعلة زواله خوف الغرق في دموعه.

الضنى

ولا بد لكلِّ محبٍّ صادقِ المودّة ممنوع الوصل - إمّا ببيْن، وإمّا بهجرٍ، وإما بكتمانٍ واقعٍ لمعنى - من أن يؤولَ إلى حدِّ السقام والضنى والنُّحول، وربما أضجعه ذلك؛ وهذا الأمر كثيرٌ جدًّا موجودٌ أبدًا. والأعراضُ الواقعة من المحبة غيرُ الأعراض الواقعةِ من هجمات العلل، ويميزها الطبيبُ الحاذقُ، والمتفرِّس الناقد.

خبر:

وإني لأعرف جاريةً من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القُوَّاد، وقد بلغ بها حُبُّ فتًى من إخواني من أبناء الكُتاب مبلغَ هَيَجان المرارِ الأسود، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جدًّا حتى علمه الأباعد، إلى أن تدُوركتْ بالعلاج.

وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرةُ، وتمكن الخلط السّوادي، وتُرِكَ التداوي خرج الأمر عن حدِّ الحبِّ إلى حد الوَله والجنون.

السُّلَوّ

وقد علمنا أن كلَّ ما له أول فلا بد له من آخر، حاشا نَعيم الله - عزّ وجلّ - بالجنة لأوليائه، وعذابه بالنار لأعدائه؛ وأما أراض الدنيا فنافذةٌ فانية، وزائلة مضمحلّة، وعاقبة كلِّ حبٍّ إلى أحد أمرين: إما اخترامُ منيةٍ، وإما سلوٌّ حادثٌ.

وقد نجد النفسَ تغلب عليها بعضُ القوى المصرِّفة معها في الجسد، فكما نجد نفسًا ترفُض الراحات والملاذَّ للعمل في طاعة الله تعالى وللكره في الدنيا، حتى تشتهر بالزهد، فكذلك نجد نفسًا تنصرفُ عن الرغبة في لقاء شكلها للأَنَفَةِ المستحكمة المنافرةِ للغدر، أو استمرار سوءِ المكافأةِ في الضمير، وهذا أصحُّ السلوّ. وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذمومًا. والسلوُّ المتولِّدُ من الهجر وطوله إنما هو كاليأسِ يدخلُ على النفس من بُلوغها إلى أملها، فيفتُر نزاعها، ولا تقوى رغبتها. ولي ذمٌّ في السلو قصيدة منها:

صَبورٌ على الأزْم الذي العِزُّ خَلْفَهُ

ولو أمطرتْهُ بالحريق سَحابُ

جَزُوعٌ من الراحات إن أنتجتْ له

خُمولًا وفي بعضِ النعيم عذاب،

والسلوّ في التجزئة الجُمْلِيَّة ينقسم قسمين:

1 سلوٌّ طبيعيٌّ وهو المسمّى بالنسيان، يخلو به القلب، ويفرَغ به البال، ويكونُ الإنسان كأنه لم يحبَّ قطُّ؛ وهذا القسمُ ربما لحق صاحبَهُ الذمُّ؛ لأنه حادثٌ عن أخلاق مذمومة، وعن أسباب غير مُوجبةٍ استحقاقَ النسيان، وربما لم تَلحقه اللائمة لعذر صحيح.

2 والثاني سلوٌّ تطبعيٌّ، قَهر النفس، وهو المسمّى بالتصبّر، فترى المرء يُظهر التجلُّدَ وفي قلبه أشدُّ لدغًا من وَخْزِ الإشْفى[21]، ولكنه يرى بعضَ الشرِّ أهونَ من بعض، أو يحاسبُ نفسه بحُجةٍ لا تُصرف ولا تُكسر. وهذا قسمٌ لا يُذَمُّ آتِيه، ولا يُلامُ فاعله؛ لأنه لا يحدُثُ إلا عن عَظيمة، ولا يقعُ إلا

عن فادحةٍ، إما لسببٍ لا يصبرُ على مثله الأحرارُ، وإما لخطبٍ لا مردَّ له تجري به الأقدارُ، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناسٍ، لكنه ذاكر، وذو حنين واقفٌ على العهد، ومتجرِّعٌ مراراتِ الصبر.

والأسبابُ الموجبة للسلوّ كثيرة، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يُعذر السالي ويذم:

1 فمنها المَلل، وإن من كان سُلوه عن ملل فليس حُبه حقيقةً، والمتوسِّمُ به صاحبُ دعوى زائفة، وإنما هو طالب لذة، ومُبادر شهوة، والسالي من هذا الوجه ناسٍ مذموم.

2 ومنها الاستبدال، وهو وإن كان يُشبه الملَلَ ففيه معنًى زائدٌ، وهو بذلك المعنى أقبحُ من الأول، وصاحبُهُ أحقُّ بالذم.

3 ومنها حياءٌ مركَّب يكونُ في المُحبّ، يحول بينه وبين التعريض بما يجد، فيتطاول الأمرُ وتتراخى المدة، ويبلى جديدُ المودةِ، ويحدثُ السلو. وهذا وجهٌ إن كان السالي عنه ناسيًا فليس بمنصف؛ إذ منه جاء سببُ الحرمان، وإن كان متصبّرًا فليس بملوم؛ إذ آثر الحياءَ على لذة نفسه.

4 ومنها نفارٌ يكونُ في المحبوبِ، وانزواءٌ قاطعٌ للأطماع.

5 ومنها جفاءٌ يكونُ من المحبوب، فإذا أفرط فيه، وأسرف، وصادف من المُحبّ نفسًا لها بعضُ الأنفةِ والعزةِ- تسلّى، وإذا كان الجفاء يسيرًا منقطعًا أو دائمًا أو كبيرًا منقطعًا- احتُمل وأُغْضِيَ عليه، حتى إذا كثر ودام فلا وفاءَ عليه، ولا يلام الناسي لمن يُحبّ في مثل هذا.

6 ومنها الغدر، وهو الذي لا يحتمله أحد، ولا يُغضي عليه كريم، وهو المَسْلَاةُ حقًّا، ولا يلام السالي عنه على أيّ وجهٍ كان، ناسيًا أو متصبّرًا، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه. ولولا أن القلوب بيد مقلّبها -لا إله إلا هو- ولا يُكَلّفُ المرء صرْفَ قلبه، ولا إحالةَ استحسانه - لولا ذاك - لقلت:إنّ المتصبر في سلوّه مع الغدر يكاد أن يستحقَّ الملامةَ والتعنيف.

وعني أخبرك أني جُبلتُ على طبيعتين، لا يهنأني معهما عيشٌ أبدًا، وإني لأَبرمُ بحياتي باجتماعهما، وأودُّ التغيَّب من نفسي أحيانًا لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما، وهما: وفاء لا يشوبه تلوُّن، قد استوت فيه الحضرةُ والمغيب، والباطنُ والظاهر، تولّدهُ الألفةُ التي لم تَعزفْ بها نفسي عما دَربَتْهُ، ولا تتطلعُ إلى عَدَم من صحبته، وعزة نفسٍ لا تقرُّ على الضيم، مهتمّة لأقلِّ ما يرد عليها من تَغيّر المعارف، مؤثرةٌ للموت عليه؛ فكلُّ واحدةٍ من هاتين السّجيتين تدعو إلى نفسها، وإني لأَجْفَى فأحتملُ، واستعملُ الأناةَ الطويلة، والتلوُّمَ الذي لا يكادُ يُطيقه أحد، فإذا أفرط الأمرُ وحَمِيَتْ نفسي تصبَّرتُ، وفي القلب ما فيه، وفي ذلك أقول:

لي خلتان أذاقاني الأسَى جُرَعًا

ونَغَّصا عِيشتي واستهلكا جَلَدِي

وفاء صدْق فما فارقتُ ذا مِقَةٍ

فزال حُزني عليه آخرَ الأبدِ

وعزةٌ لا يَحلُّ الضَّيمُ ساحتها

صرافة فيه بالأموالِ والوَلَدِ

الموت

ربما تزايد الأمر، ورقّ الطبع، وعظم الإشفاق، فكان سببًا للموت، ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار: "من عَشِقَ، فعفَّ، فمات؛ فهو شَهيد".

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء، فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخطَ، فباعها، فجزعت لذلك جزعًا شديدًا، وما فارقها النُّحول والأسف، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سُلَّتْ، وكان ذلك سببَ موتها؛ ولم تَعشْ بعد خروجها عنه إلا أشهرًا ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولًا ورقّة، فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبّتك لفلان، فتنفست الصعداء، وقالت: والله لا نسيتُه أبدًا، وإن كان جفاني بلا سبب. وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرًا.

وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي، وكان متزوجًا بعاتكة بنت قند، وكانت التي لا مَرْمَى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حدِّ الصبا وتمكّن سلطانه تُغضب كلَّ واحدٍ منهما الكلمةُ التي لا قدر لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدةَ ثمانيةِ أعوام، وكانت قد شفها حبُّه، وأضناها الوجد فيه، وأنحلها شدةُ كَلَفها به، حتى صارت كالخيال المتوهَّم دنفًا، لا يُلهيها من الدنيا شيء، ولا تُسَرُّ من أموالها - على عَرْضها وتكاثرها - بقليلٍ ولا كثيرٍ إذا فاتها اتفاقه

معها وسلامته لها، إلى أن توفي أخي - رحمه الله - في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمئة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، فما انفكَّتْ منذ بان عنها من السقم الدخيل، والمرض والذبول، إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عامًا؛ ولقد أخبرتني عنها أمها وجميعُ جواريها أنها كانت تقول بعده: ما يقوِّي صبري، ويُمسك رَمَقي في الدنيا ساعةً واحدةً بعد وفاته إلا سروري، وتيقُّني أنّه لا يضمُّهُ وامرأةً مضجعٌ أبدًا، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنتُ أتخوَّف غيره، وأعظم آمالي اليوم اللَّحاقُ به. ولم يكن قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، فكان كما قدَّرَتْ. غفر الله لها ورضي عنها.

وهناك حكاية لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر: أن رجلًا أندلسيًا باع جاريةً كان يجدُ بها وجدًا شديدًا، لفاقةٍ أصابته، من رجلٍ من أهل ذلك البلد، ولم يظنَّ بائعها أن نفسَه تتبعها ذلك التتبعَ، فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه، وحكَّمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه، فتحمل عليه بأهل البلد، فلم يُسْعِفْ منهم أحد، فكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدى إلى الملك، فتعرَّض له وصاح، فسمعه، فأمر بإدخاله، والملك قاعدٌ في عليّةٍ له مشرفةٍ عاليةٍ، فوصل إليه، فلما مثل بين يديه أخبره بقصته، واسترحمه، وتضرع إليه، فرقَّ له الملك، فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر، فقال له: هذا رجلٌ غريب، وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك، فأبى المبتاع، وقال: أنا أشد حبًّا لها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيثَ بك غدًا، وأنا في أسوأ من حالته، فعرضَ له الملك ومن حواليه من أموالهم، فأبى، ولجّ واعتذر بمحبته لها، فلما طال المجلسُ ولم يروا منه البتة جُنوحًا إلى الاسعاف قال للأندلسي: يا هذا، مالك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدتُ لك بأبلغ سعي، وهو ذا تراه يعتذر بأنه فيها أحبُّ منك وأنه يخشى على نفسه شرًّا أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك. فقال الأندلسي: فما لي بيدك حيلة؟ قال له: وهل هاهنا غير الرغبة والبذل؟ ما أستطيع لك أكثر. فلما يئس الأندلسيُّ منها جمع يديه ورجليه، وانصبَّ من أعلى العلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ، فابتدر الغلمان من أسفل، فقُضي أنه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبيرَ أذى، فَصُعِدَ به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال: أيها الملك، لا سبيلَ إلى الحياةِ بعدها، ثم هَمَّ أن يرميَ نفسه ثانية، فَمُنِعَ، فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحُكم في هذه المسألة، ثم التفت إلى المشتري، فقال: يا هذا، إنك ذكرت أنك أودُّ لها منه وتخافُ أن تصيرَ في مثل حاله، فقال: نعم، قال: فإن صاحبك هذا أبدى عُنوانَ محبته وَقَذَفَ بنفسه يُريد الموتَ، لولا أنَّ الله - عزّ وجلّ - وقاه، فأنت قُمْ فصحِّحْ حبك، وترامَ من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن متّ فبأجلك، وإن عشتَ كنتَ أولى بالجاريةَ، إذ هي في يدك، ويمضي صاحبك عنك، وإن أبيتَ نزعتُ الجارية منك رغمًا، ودفعتها إليه، فتمنّع، ثم قال: أتَرامَى، فلما قرب من الباب، ونظر إلى الهويّ تحته، رجع القهقرى، فقال له الملك: هو والله ما قلت، فهمَّ ثم نكل، فلما لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعبْ بنا يا غلمان، خذوا بيديه، وارموا به إلى الأرض، فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية، فقال له: جزاك الله خيرًا، فاشتراها منه، ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.

التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حُبه التعففُ، وتركُ ركوب المعصيةِ والفاحشةِ، وألَّا يرغبَ عن مُجازاة خالقه له بالنعيمِ في دار المقامة، وألّا يَعْصِي مولاهُ المتفضلَ عليه الذي جعله مكانًا وأهلًا لأمره ونهيه، وأرسل إليه رسله، وجعل كلامه ثابتًا لديه، عنايةً منه بنا وإحسانًا إلينا.

وإن من هام قلبُه، وشُغِلَ باله، واشتدَّ شوقه، وعظم وجدُه، ثم ظفِر فرامَ هواه أن يغلب عقله، وشهوته أن تَقهرَ دينه، ثم أقام العدلَ لنفسه حصنًا، وعلم أنها النفسُ الأمارةُ بالسوء، وذكّرها بعقاب الله تعالى، وفكَّر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذَّرها من يوم المعَاد والوقوفِ بين يدي الملك العزيزِ الشديدِ العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاجُ إلى بينة، ونظر بعينِ ضميره إلى انفراده عن كلِّ مدافع بحضرةِ علّام الغيوب (يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتَى اللهَ بقَلْب سَلِيم) (الشعراء: 88، 89)، (يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات) (الحجر: 48)، (يوم تَجد كُلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خير مُحْضرًا وما عَمِلَتْ من سُوء تَودّ لو أنَ بينها وبينه أمدًا بعيدًا) (آل عمران: 30)، يوم (وعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القيوم وقد خابَ من حَمَلَ ظلمًا) (طه: 111)، يوم (ووَجدوا ما عَمِلُوا حاضرًا ولا يظلمُ ربُّكَ أحدًا) (الكهف: 49)، يوم (الطامَّة الكبرى)، (يوم يتذكّر الإنسان ما سَعى، وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لمن يَرَى فأما مَنْ طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خافَ مَقامَ رَبِّه وَنَهَى النَّفْسَ عن الهوى فإن الجنةَ هي المأوى) (النازعات: 35 - 41)، واليوم الذي قال الله تعالى فيه: (وكلَّ إنسانٍ ألزَمْناه طائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ له يومَ القيامة كتابًا يَلقاهُ مَنشورًا. اقرأ كتابَكَ كَفَى بنفسِك اليوْمَ عليكَ حسيبًا) (الإسراء: 13، 14)، عندها يقول العاصي: (يا ويلتنا ما لهذا الكِتَاب لا يُغَادِرِ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصَاها) (الكهف: 49)، فكيف بمن طُويَ قلبُه على أحرّ من جَمرِ الغضا، وطُوي كشحه على أحدّ من السيف، وتجرع غصصًا أمرَّ من الحنظل، وصَرَفَ نفسه كَرْهًا عما طمعت فيه، وتَيَقّنَتْ ببلوغه وتهيّأت له، ولم يحلْ دونها حائل ـ لحريٌّ[22] أن يُسرَّ غدًا يومَ البعث، ويكون من المُقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمنَ روعاتِ القيامةِ وهَولَ المطلع، وأن يُعوِّضه الله من هذه القرحة الأمنَ يوم الحشر.

حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطبيب، قال: رأيت شابًا حَسَنَ الوجه من أهل قُرطبةَ قد تعبدَ ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطتْ بينهما مَؤونة التحفظ، فزاره ذاتَ ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضتْ لصاحِب المنزل حاجةٌ إلى بعض معارفه بالبُعد عن منزله، فنهض لها على

أن ينصرفَ مسرعًا، ونزل الشابُّ في داره مع امرأته، وكانت غايةً في الحسن. وتربًا للضيف في الصبا، فأطال ربُّ المنزلِ المقام إلى أن مشى العَسَسُ، ولم يُمكِنْهُ الانصرافُ إلى منزله، فلما علمتْ المرأةُ بفواتِ الوقتِ، وأنَّ زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة - تاقتْ نفسُها إلى ذلك الفتى، فبرزت إليه، ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله - عز وجل -، فهمَّ بها، ثم ثاب إليه عقلُه، وفكَّرَ في الله - عزّ وجلّ - فوضع إصبعهُ على السراج، فتقفّع، ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنَّم. فهال المرأة ما رأت ثم عاودته، فعاودته الشهوةُ المركّبة في الإنسان، فعاد إلى الفعلة الأولى، فانبلج الصباح وسبّابته قد اصطلمتها النار. أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه؟ أو ترى أن الله تعالى يضيع له هذا المقام؟ كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها عَلِقَها فتًى مِثْلُها في الحُسن وعلقته، وشاع القول عليهما، فاجتمعا يومًا خاليين، فقال: هلّمي نحققْ ما يقال فينا. فقالت: لا والله لا كان هذا أبدًا، وأنا أقرأ قول الله: (الأخلَّاء يومئذٍ بعضُهُمْ لبعضٍ عدُوّ إلا المتقين) (الزخرف: 67)، قالت: فما مَضى قليل حتى اجتمعنا في حلال.

ولقد حدثني ثقةٌ من إخواني أنه خلا يومًا بجاريةٍ كانت له مُفاركةً[23] في الصبا، فتعرضَتْ لبعض تلك المعاني، فقال لها: لا، إن من شُكْرِ نعمة الله فيما مَنحني من وصالك الذي أقصى آمالي أن أجتنبَ هواي لأمره، ولعمري إن هذا لَغريبٌ فيما خلا من الأزمان، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره؟

وما أُقدِّر في هذه الأخبار - وهي صحيحة - إلا أحدَ وجهين لا شك فيهما: إمَّا طبعٌ قد مال إلى غير هذا الشأن، واستحكمتْ معرفتُهُ بفضلِ سواه عليه|، فهو لا يُجيب دواعيَ الغَزَلِ في كلمة ولا كلمتين، ولا في يوم ولا يومين، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتُحنوا به لَحُلَّتْ طباعُهم، وأجابوا هاتف الفتنة، لكنَّ الله عصمهم بانقطاع السبب المحرِّك نظرًا لهم، وعلمًا بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرشد، لا إله إلا هو؛ وإمَّا بصيرةٌ حضرتْ في ذلك الوقت، وخاطرُ تجرَّدَ، انقمعت به طوالعُ الشهوة في ذلك الحين، لخيرٍ أراد الله - عزَّ وجلَّ - لصاحبه. جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه، آمين.



1. من أعلام التابعين، وكان عالماً ناسكاً، توفي بالمدينة (بين 98، 102هـ). ↑

2. الفقهاء السبعة: عروة بن الزبير، سعيد بن المسيب، سليمان بن ياسر، عبيد الله بن عتبة، أبو بكر بن عبد الرحمن، قاسم بن محمد، خارجة بن زيد، وقد جمعهم بعضهم قوله:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة

فقسمته ضِيزى عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسم

سعيد سليمان أبو بكر خارجه

(ابن خلكان، 283). ↑

3. في أصل عنصرها الرفيع: كأنه تعبير آخر عن القول "في عالم المثل". ↑

4. إبراهيم بن سيار النظام أبو إسحاق، أستاذ الجاحظ من أبرز المتكلمين البصريين. ↑

5. التفل: هو الذي ترك استعمال الطيب، وهذا هو الذي يستدعي "التزين". ↑

6. الكُنْدُر: ضَرْب من العلك كان يُمضغ لقطع البلغم. ↑

7. رجل فيل الرأي: أي ضعيف الرأي. ↑

8. هذا يدل على أن جدران الحمامات في الأندلس كانت تزين بالصور (كما كان الحال في بعض حمامات المشرق). ↑

9. سرقسطة: مدينة الثغر الأعلى، وكانت آهلة حسنة الديار والمساكن، حكمها بنو هود في أيام ملوك الطوائف، وسقطت في يد الإسبان سنة 512هـ ↑

10. الوقص: قصر العنق. ↑

11. الفوه: سعة في الفم ↑

12. التغرير: المخاطرة. ↑

13. يقرطس: يصيب المرمى ↑

14. العزهاة: العازف عن النساء واللهو. ↑

15. نجهه: رده رداً قبيحاً. ↑

16. الخلابة: المخادعة؛ والتجليح: المكالحة، والمجلح: هو الذي يركب رأسه في الأمر، ويجاهر به مكاشفاً دون تستر. ↑

17. لمّ بها: أصابه مسٌّ أو لمم. ↑

18. حرض وغمل: دَنَفٌ وفساد. ↑

19. الإسعاد: المساعفة والعون. ↑

20. إصناف النبات: بدء ظهور إيراقه. ↑

21. الأشفى: المخرز. ↑

22. لحري: جواب "إنّ" قبل سطور كثيرة، حيث بدأ قوله في الفقرة: "وإن من هام قلبه ... الخ". ↑.

23. مفاركة: هاجرة. ↑.

Table of Contents